المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه.

حينما كنت طالباً في كلية أصول الدين بالأزهر الشريف في القاهرة، قسم العقيدة والفلسفة، وذلك قبل أربعين سنة، كان مقرراً علينا مساقاً بعنوان علم الأخلاق، وكان مدرس هذا المساق الأستاذ الدكتور أحمد البساطي، (رحمه الله)، وكان قد عمل محاضراً للفلسفة في جامعة السوربون بفرنسا، لمدة ثلاث عشرة سنة، وكان لطريقة شرحه وعلاقته بنا نحن الطلاب، وخصوصاً كاتب هذه الكلمات ومحمد سليم الكحلوت، ومحمد خلف عبد الواحد، وكلاهما أستاذ دكتور في جامعة الأزهر والقدس المفتوحة، كانت علاقته بنا علاقة خاصة جداً، مما جعلني أتعلق به وبالمساق الذي يُدرّسه (علم الأخلاق).

من حينها وموضوع علم الأخلاق، ومن ضمنه القيم الإنسانية يشغل حيزاً كبيراً من فكري، محاولاً القراءة فيه، وتوظيف ما أقرأ في مجال العمل والدعوة، وكلما تقدم العمر زادت الرغبة في الكتابة عن هذا الموضوع (القيم)، ما بين الأهمية والحاجة، حتى ساق الله لي كتاباً (القيم الدافعة لتقدم المجتمع)، لأستاذي في كلية أصول الدين، لمبحث الفلسفة الحديثة، الأستاذ الدكتور محمود زقزوق، فكان كما يقال "وقع على الجرح"، فلما أتممت قراءته تحولت الرغبة في الكتابة إلى فعل، فأمسكت بالقلم وأحضرت الأوراق، واستحضرت ما أمكنني من كتب ودراسات ذات علاقة.

وحقيقة الأمر أن القيم بنوعيها الديني والأخلاقي تعتبر مرتكزاً كبيراً في تصحيح السلوك الفردي والجماعي، وأنها تُعد معاييراً للسلوك الإنساني التي لا غنى عنها، وأن كل المجتمعات قديمة ومعاصرة، نامية أو متقدمة، تحرص على ترسيخها بين أفرادها وجماعاتها.

وقد شَغلت القيم الفكر الإنساني على مدار تاريخه الطويل، بل هي من أهم المباحث التي يدور حولها الفكر الفلسفي منذ القدم، فمبحث الإكسيولوجيا (القيم)، هو ثالث مباحث الفلسفة

إضافة لمبحث الأنطولوجيا (ما بعد الطبيعة)، ومبحث الأبستمولوجيا (نظرية المعرفة)، بل هو أكثرها أهمية، وأشدها جذبا للاهتمام، ويرجع ذلك لطبيعة الإنسان كونه الوحيد من بين كل المخلوقات القادر على التقييم.

إن المدلول المعنوي للقيم هو حماية الدين مما يتعرض له من هجمات ومعارضة، لهذا كانت صلة القيم بالدين صلة قوية، وترابطاً واضحاً، لأن الدين جاء في مقاصده العليا لخير الإنسان، كذلك القيم وجدت لتعديل سلوك هذا الإنسان للخير الخاص والعام، من هنا جاء التشابك والترابط بين القيم والدين، لأنه كثيراً ما تنطلق القيم الأخلاقية من الدين: "**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (آل عمران: ١٠٤)**

والقيم دينية أو أخلاقية لم تترك جانباً من جوانب الحياة الإنسانية: روحية أو جسدية، عقلية أو باطنية، فردية أو جماعية إلا ورسمت له المنهج الأمثل في السلوك الرفيع، لأن مركز هذه القيم هو الإنسان، وهي حينما تتحدث عن الإنسان فإنما تتناوله كقيمة إنسانية وليس أعضاء فسيولوجية فقط.

من هنا جاءت الحاجة للكتابة عن القيم، وربما في مجتمعنا الفلسطيني الذي يتعرض لاحتلال وحصار ومؤامرات ضخمة، نحن بحاجة أكثر لتفعيل دور القيم في صراعنا مع عدونا الصهيوني، فقيمنا الأصيلة أخلاقية ودينية هي الجدار الحصين لتماسك المجتمع، واستمرارية قدرته على المواجهة والعطاء.

إن صراعنا مع عدونا له أبعاد كثيرة، منها ما كان دينياً، ومنها ما كان سياسياً، ومنها ما كان عسكرياً، ومنها ما كان ثقافياً وفكرياُ، والأمة التي تملك مقومات الحق والحقيقة، هي الأمة المنتصرة لا محالة، ونحن الفلسطينيون من يملك الحق والحقيقة، الحق عقائدياً ودينياً، الحق السياسي والتاريخي، الحق الفكري والثقافي، الحق في الأرض والمكان.

تناولت في هذه الدراسة على عجالة موضوع القيم من ناحية الأهمية والحاجة، وعلاقتها بالفطرة والدين، ثم تناولت ثلاثين قيمة بالدراسة والتأصيل.

أنا لا أكتب دراسة أكاديمية حتى ألزم نفسي بمنهجية تلك الدراسات، إنما أكتب ما تحتفظ به الذاكرة والعقل ومداد التجربة والخبرات على مدار ستين سنة من عمري، لهذا وجب التنبيه.

رجائي أن يتقبل الله مني هذا العمل، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات آبائي، وأساتذتي ومشايخي وأصدقائي وكل من له حق عليّ ، فإن أحسنت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان.

الأستاذ/ حسني محمد العطار

تمهيد

- القيم الأخلاقية وطريق النهضة
- علاقة الإنسان بالقيم الأخلاقية
- القيم وعلاقتها بالمسؤولية الأخلاقية
- الضمير وعلاقته بالقيم

القيم الأخلاقية وطريق النهضة

الدارسون لمعالم الحضارات، وسلوك المجتمعات خصوصاً المتوازنة منها، والتي كان لها باع وذراع في مجال الرقي والنهضة، يُرجعون ذلك بمدى وعي تلك الشعوب بالقيم المجتمعية ومدى التزامهم بها، وذلك لأهمية هذه القيم في رقي المجتمعات وتقدمها.

ومن الأمور المتفق عليها أن الإنسان لا يمكن أن يعيش في مجتمع دون قيم أخلاقية تحكم سلوك الأفراد والمجتمع، وتنظم العلاقات بين مكونات المجتمع، حتى في علاقة الإنسان بكل شيء، إنسان أو حيوان أو بيئة عامة، وهذا يدل على أن القيم الأخلاقية فطرية في أساس وجودها.

فالإنسان من لحظة وجوده الأولى، وحتى اليوم ينظر إلى الصدق والرحمة والإخلاص وبرّ الوالدين على أنها من الفضائل الواجب الالتزام بها، وأن ما يقابلها رذائل يجب تجنبها. وهذا يدل على أن منظومة القيم الأخلاقية رغم اختلاف الشعوب، وتقدم

وتطور الزمن هي قيم ثابتة، فالصدق عند كل شعوب العالم هو الصدق، والأمانة هي الأمانة، والعدل هو العدل، فالقيم الأخلاقية هي قيم مطلقة لا اختلاف عليها وحولها بين الشعوب، راقية أو بدائية، ومن هنا علينا أن نُفرّق بين القيم المطلقة، وبين القيم النسبية والوسائلية، حتى لا تختلط الأمور وتضيع منا معالم الطريق وينقلب عندنا هرم الأولويات.

ومن الملاحظ أن المجتمعات المعاصرة طرأ عليها متغيرات ومستجدات كثيرة وعديدة، وفي كل مجالات الحياة، كان لهذه المتغيرات والمستجدات تأثيرها الإيجابي والسلبي على سلوك الأفراد والجماعات، مما أثر على قيم المجتمع فبدأت النظرة للقيم تتغير، وبدأنا نشاهد ونلمس تمرداً على القيم والعادات والتقاليد، وأصبح أبناء الجيل الجديد ينظر لمنظومة القيم والعادات والتقاليد على أنها من الماضي المتخلف، وأنها لا تتلاءم مع نمط الحياة الجديد ومع تطوره المتسارع.

ومن هنا رأينا مظاهر متعددة للخروج على هذه القيم، والانقلاب عليها، أحياناً فكرياً وفلسفياً، وأحياناً أخرى مسلكياً، نظريات وأفكار وفلسفات، وتمرد وهيبز ومخدرات وشذوذ.

لهذا نجد الجيل القديم كثير الشكوى من تغير قيم وأخلاقيات ومسلكيات الجيل الجديد، وأن هذه الأجيال افتقدت الجدية والعمق في نظرتها للحياة، وأنها ما عادت تدرك قيمة القيم وأثرها في جوانب الحياة المتعددة، لهذا لم يعد غريباً شعور هذه الأجيال المتزايد من اليأس والإحباط والتشاؤم والتحلل من القيود الاجتماعية.

والحق أن من أخطر العوامل التي أوجدت الهوة في نظرة الأجيال المعاصرة للقيم هي فقدان القدوة، على مستوى الأسرة الأب والأم، وعلى مستوى السياسة القائد والزعيم، وعلى مستوى الدين الشيخ والداعية والقسيس والراهب والكاهن، وعلى المستوى الاجتماعي النخبة والمنظرون والتربويون. فلا يمكن للأب المدخن أن يكون مؤثراً وقدوة لابنه في دعوته له بالإقلاع عن التدخين، كذلك لا يمكن أن يكون الشيخ قدوة للناس وهو ذميم الخلق وسيء العلاقة مع الأهل والجيران، أو منافقاً لحاكم أو سلطة، كذلك السياسي لا يمكن أن يكون قدوة لشعبه وهو يتلاعب في مقدراتهم ويقدم مصالحه الشخصية على مصالح الوطن والشعب.

ومن الأمور المهمة في تحديد العلاقة بين الجيل القديم والجيل المعاصر، أن يتفهم الجيل القديم المتغيرات والمستجدات

التي طرأت على حياة المجتمع، فهناك من الأمور ما لا ضرورة في التركيز عليها وجعلها حجر عثرة، المهم في عملية التغيير علينا أن نحافظ على قيمة الاحترام التي تربط الأجيال المتوارثة، احترام الإنسان من حيث كونه إنساناً، فالجيل الناشئ عليه أن ينظر للجيل الذي سبقه نظرة احترام وتقدير، لا نظرة خضوع وخنوع أو صراع من الجيل القديم.

إننا بحاجة ماسة إلى غرس قيم الاحترام والثقة بالنفس، والاعتزاز بالكرامة الإنسانية في الأجيال المعاصرة، وهذا يكفيهم للتعامل مع متغيرات زمانهم، وعلى الجيل القديم أن يعي ويفهم أن لكل زمان قضاياه وحياته والتي بلا شك تختلف وتتغير عما سبقه من أجيال، إننا نربي أبناءنا لزمانهم وليس لزماننا، وليس صحيحاً ما يقوم به بعض الآباء من جعل أبنائهم نسخاً مكررة منهم، فهذا خطأ كبير سيتحمل الآباء وزره، ما علينا فقط إلا ارشادهم وتوضيح معالم الطريق أمامهم، وبالتالي نترك لهم حرية شق طريق مستقبلهم بأنفسهم، وهكذا تتواصل الأجيال، ولا تتصارع.

نحن كشعب فلسطيني أحوج ما نكون إلى هذه النظرة في علاقة الأجيال، جيل الآباء، وجيل الأبناء، علاقة مبنية على الاحترام والثقة المتبادلة، وخصوصاً أننا نخوض صراعاً مريراً مع

عدو شرس، يتمترس خلف جملة من القيم، في مواجهته علينا أن نُظهر تمسكاً بقيمنا وأخلاقنا، التي من خلالها سننتصر بإذن الله تعالى.

علاقة الإنسان بالقيم الأخلاقية

هي نفس علاقة الإنسان بالإيمان، فالإيمان (الدين)، كما يقولون فطري موجود مع وجود الإنسان، يولد معه، يدور حيث دار، وكذلك القيم الأخلاقية موجودة من اللحظة الأولى لوجود الإنسان، إلا أنها لم تظهر من بدايتها بشكلها التي هي عليها الآن، إنما تدرجت في وجودها من خلال الخبرات والتجارب الحياتية، ومن خلال مستوى وعي الفرد والمجتمع، والكل يعرف أن الدين من مقاصده الأساسية الدعوة للقيم الأخلاقية، والحث على التمسك بها وتمثلها في السلوك الإنساني، فرداً وجماعة.

وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". (أحمد/٨٩٣٩)، دليلاً على أن القيم الأخلاقية قديمة من قبل نزول الرسالات السماوية على الأنبياء، فمن يوم الإنسان الأول جُبل هذا المخلوق المتميز عن بقية المخلوقات على حب الخير، وكراهية الشرّ، ذلك لأن طبيعته خيرة وليست شريرة، ومهما سيطر الشر وارتفعت رايته، سيبقى الخير موجوداً يصارع الشرّ، ولن يستطيع الشرّ محو الخير، وقد جاءت الديانات

السماوية لتعزز القيم الأخلاقية وترفع من قدرها، وتنميها وتزيد من ترسيخها وتثبيتها، وربطها بالسماء. والتاريخ يحدثنا أنه كلما ازداد الإحساس بالقيم، والوعي بها كلما كان ذلك دافعاً إلى الرقي والازدهار، والحضارات الإنسانية عبر التاريخ خير شاهد على ذلك، واكاد أجزم أن الشاعر حافظ إبراهيم كان محقاً حينما قال:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

حضارات سادت لأنها قامت على القيم، وحضارات بادت لأنها تعرت من القيم، فمثلاً عرفت الحضارة المصرية القديمة والهندية والشرقية بعمومها، عرفت القيم الأخلاقية والاجتماعية، ورسختها في واقع الحياة، وسجلتها من ضمن ما سجلت، وقد خلّد لنا التاريخ ذلك مكتوباً على صفحات أوراق البردي، يمجدون القيم الطيبة والحسنة، ويذمون القيم الشريرة والقبيحة، وكيف أن أصحاب القيم الطيبة والحسنة سيسكنون العالم العلوي، وأصحاب القيم الشريرة والقبيحة سيسكنون العالم السفلي.

والحضارة الإسلامية شيدت صرحها الشامخ على مدار مئات السنين، وفي كل البلاد التي رفرفت فيها راية الإسلام، من الأندلس إلى الرباط إلى تونس إلى بلاد الشام ومصر والعراق وبلاد ما وراء النهر، كلها شُيدت على القيم الأخلاقية الجميلة، بل

جعل الإسلام هذه القيم من ضمن المنظومة الإسلامية، فكانت القوة لإقامة العدل في الأرض، والعلم للارتقاء بالإنسان، وكان الفن للترويح عن النفس وإبراز المشاعر والأحاسيس، وهكذا كانت الشجاعة والرحمة والعمل والاجتهاد.

والإنسان مهما تقدمت به آلاف السنين يبقى كما هو بحاجة للقيم الأخلاقية والاجتماعية، لأنها من مقومات حياته، ومن عوامل رقيه وتقدمه، وهذا يدلنا على ثبات هذه القيم ورسوخها، مهما تغيرت الأحوال والظروف، ومهما طغت روح المادية على سلوك الأفراد والجماعة، فلا يمكن بحال من الأحوال أن تنقلب الفضيلة إلى رذيلة، والخير يصبح شراً، إن هناك ثوابت في حياة الإنسان تبقى كما هي ثوابت، مها تغيرت وجهات نظرنا وتصوراتنا، ومن هذه الثوابت القيم الأخلاقية.

صحيح أن المجتمعات الغربية نهجت منهج العلوم المادية، وطغت على حياتهم الروح المادية، وعملوا على الانسلاخ من سلطة وسلطان الكنيسة، وهربوا بعيداً عن الدين وقيمه وتشريعاته، وفصلوا ما بينهم في حياتهم بالكلية عن الدين، مع كل هذا إلا أنهم ما زالوا يتمسكون بجملة من القيم الدافعة لتقدمهم ونهضتهم واستقرارهم.

ونحن كمجتمع فلسطيني نمر بظروف استثنائية وقاهرة، ربما لم يمر بها شعب من الشعوب، احتلال للأرض واضطهاد وتشريد للإنسان، وحصار قاتل من القريب قبل البعيد، منع للسفر، وقطع للرواتب، وأزمة، بل أزمات في كل جانب من جوانب حياتنا، لا كهرباء لا عمل، وسلطة تدعي الوطنية هي أقرب لسلوك العدو منها للإخوة والأهل، في ظل كل هذا وغيره نحن بحاجة ماسة وضرورية لتفعيل منظومة القيم الأخلاقية والإنسانية، على مستوى الأفراد والجماعة، فهي عامل هام ومهم لقيام وحدة الشعب ورص قواه.

لن ننتصر على العدو الإسرائيلي بقوة السلاح والإعداد وحدها فقط، بل يضاف إليها قيمنا الراسخة والفاعلة والموصولة بالسماء، هذه القيم والتي عمل العدو الإسرائيلي على تفتيتها وخلخلتها خلال عشرات السنين، والتي فشل فيها فشلاً واضحاً، من هنا لزم علينا بعث هذه القيم وإحيائها والتداعي لتمثلها فيما بيننا، وفي النهاية ستنتصر القيم الخيرة والصحيحة على قيم الشرّ والظلم والاستبداد.

القيم وعلاقتها بالمسؤولية الأخلاقية

قال علماء الاجتماع إن الإنسان "حيوان أخلاقي" وقيل "كائن أخلاقي"، لأنه الوحيد من بين كل المخلوقات الذي لا يمكنه العيش بدون قيم تحكم وتنظم سلوكه على المستويين الفردي والجماعي، والسبب في ذلك وجود الضمير المنظم للسلوك، وهو فطري الوجود، يولد مع الإنسان وليس طارئاً عليه.

وعلاقة فطرة الإنسان بالدين علاقة تثبيت وتدعيم وليست علاقة تغيير أو إلغاء، ومن جانب آخر علاقة تكميل وتأييد، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم السابق الذكر " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "، كلام واضح في بيان العلاقة بين الدين الجديد في تعاليمه، مع قيم المجتمع القديمة والمتوارثة، ومن ناحية أخرى لبيان مدى التوافق بين تعاليم الإسلام، وما تعارف عليه الناس من أوامر ونواه لا تتعارض مع العقل والحكمة.

والمتابع لتوجيهات الدين ربانية أو نبوية يلاحظ تركيزها على الضمير، فردياً أو جماعياً، ومن تاهت عليه الطريق يقول له

النبي صلى الله عليه وسلّم "استفت قلبك". (أحمد/١٧٥٤٥)، ويوم القيامة يُترك له حساب نفسه بنفسه {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً}، وهذا إن دل فإنما يدل على مدى العلاقة بين المسؤولة والضمير، والذي نعني به ذلك الشعور الكامن في أعماقنا والذي يُعد بمثابة البوصلة التي تحدد لنا الوجهة الصحيحة لسلوكنا الأخلاقي والإنساني في الحياة.

والمسؤولية الأخلاقية تعتبر من الصفات المميزة للإنسان، وهي مستمدة من كونه إنساناً، أي هي ملازمة له غير طارئة عليه، والإنسان مسؤول عن أفعاله أمام نفسه وضميره قبل أن يكون مسؤولاً أمام الناس أو أمام الله تعالى، لهذا ينبغي على الإنسان أن يعي بمسؤولياته المتعددة في الحياة، وألا يعيش على هامش الحياة لا له ولا عليه، فهذا ينظر إليه الدين على أنه "أمت علينا ديننا أماتك الله"، فالدين يرى أن كل فرد خلق لأداء مهمة ورسالة، وليس وجوداً عبثياً، فمن يقوم بهذا الدور والواجب أن يكون ايجابياً، يكون حقق مهمة وجوده، أما الآخر فوجوده ربما يكون أقل نفعاً من الحيوان: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته). (البخاري/٢٥٥٤).

فالدين يؤسس المسؤولية الفردية والجماعية على الحرية الواعية والعاقلة، ومن هنا لا يترتب على أي فعل يصدر عن الإنسان دون وعي وحرية أي مسؤوليات أخلاقية أو دينية، وأحياناً قانونية، إنما الأفعال الصادرة بحرية هي التي يتحمل مسؤوليتها، أي التي يملك حيالها إرادة الفعل أو الترك، الرفض أو القبول، صاحب شخصية مستقلة، وهذا يُعتبر تشريفاً من الدين للإنسان، فالإسلام ينظر للمسؤولية على أنها مرادفة للحرية والاستقلال والكرامة.

والمسؤولية من وجهة نظر الإسلام متشعبة الجوانب: منها ما تبدأ بمسؤولية الإنسان عن نفسه، عن عقله وجسمه وعلمه وماله ووقته، أي عن مجمل حياته بصفة عامة، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم في هذا واضح "لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به". (الترمذي/٢٤١٧).

ومن المسؤولية ما يتعلق بالآخرين، المسؤولية الاجتماعية، نحو العَالَم الذي نعيش فيه ومعه، كل شيء بلا استثناء، فالإنسان كائن اجتماعي، بحاجة إلى مجتمع يعيش فيه ومعه، تتطور من

خلاله شخصيته، عليه نحوه التزامات أدبية وأخلاقية ودينية وقانونية، هذه الالتزامات مرتبطة بوجوده الإنساني، وبالتالي ما دمتُ أطالب المجتمع بحقوقي كعضو في هذا المجتمع، فأنا مُلزم بتقديم ما عليّ من واجبات، فلكي أحصل على حريتي عليّ ألا اتجاوز حريات الآخرين، ولكي أنال العدل والمساواة عليّ ألا أعتدي أو أظلم غيري، فالمسؤولة متبادلة وليست من جانب واحد، فكلنا مسؤول عن الآخر بشكل ما، والآخر مسؤول عني، ومسؤول عن المجتمع الذي ننتسب إليه، ومسؤول عن الوطن الذي نحيا على ترابه وننعم بخيراته، ومسؤول عن تقدمه وحريته وأمنه واستقلاله.

ونحن كشعب فلسطيني واجبنا مضاعف عن بقية الشعوب تجاه بعضنا البعض، وتجاه وطننا، وتجاه قضيتنا، فعلينا أن نكون أكثر إيجابية في علاقاتنا فيما بيننا، وعلينا أن نُقدم العام على الخاص، وعلينا أن نكون أكثر صدقاً وإخلاصاً، نزيد من مساحة الحب فيما بيننا، وأن نزيد من مساحة التراحم والتعاطف، لأن صراعنا مع الإسرائيليين يتطلب منا ذلك وأكثر منه.

الضمير وعلاقته بالقيم

وهو ما دل على متكلم أو مخاطب أو غائب، أنا، أنتَ، هو، تكلمتُ، تكلمتَ، تكلم، وهو أيضاً ما تضمره في نفسك ويصعب الوقوف عليه. وفي اصطلاح أهل العلم هو خاصية يُصدر بها الإنسان أحكاماً مباشرة على القيم الأخلاقية لأعمال معينة، فإن تعلق فيما وقع، صاحبه ارتياح أو تأنيب، وإن تعلق بما سيقع كان أمراً أو نهياً، افعل أو لا تفعل.

ولفظ الضمير لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية، ولا يوجد لفظاً يشترك معه في أصل الاشتقاق إلا كلمة (ضامر)، في قوله تعالى: "**(٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**" **(الحج:٢٧)** ، ومع ذلك عبّر القرآن الكريم عن الضمير بالنفس اللوامة: " **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**" **(القيامة:٢)**، هذه النفس التي تقوم بمحاسبة صاحبها عما بدر منه، وكما يقول الإمام الطبري: "هي التي تلوم صاحبها على الخير والشرّ وتندم على ما فات"، ومن هنا يتفق المعنى المقصود لكلمة الضمير بمعنى النفس اللوامة

الوارد في القرآن الكريم مع المعنى المقصود في اصطلاح أهل الفكر، فهو جهاز مراقبة ومحاسبة داخل الإنسان السوي، يُقيِّم ويُقوم أعماله السابقة واللاحقة ويُصدر عليها حكماً أخلاقياً بالخير أو الشرّ.

وقد تعددت أقوال الفلاسفة تجاه الضمير، فالفلاسفة الحدسيون اعتبروه قوة فطرية تدرك الخير والشرّ حدسياً من غير خبرة سابقة. والفلاسفة الطبيعيون أرجعوا الضمير إلى التجربة وربطوا ما بين أخلاقية الضمير بنتائج الأعمال، ومن هنا جاء تعريفهم للضمير بأنه مركب من الخبرات العاطفية القائمة على أساس فهم الإنسان للمسؤولية الأخلاقية لسلوكه في المجتمع، وتقدير الفرد الخاص لأفعاله وسلوكه. ويرتبط الضمير ارتباطاً وثيقاً بالواجب، ويُشعر المرء بوعيه بأنه انجز واجبه تماماً وبأنه صافي الضمير، أما انتهاك الواجب فيكون مصحوباً بوخزات التأنيب والضمير في استجابته الإيجابية لمتطلبات المجتمع، فهو قوة دافعة قوية للتهذيب الأخلاقي للفرد.

أما علماء الاجتماع فيعتبرون الضمير مستوى أخلاقي للسلوك عند شخص معين، يتكون نتيجة لخبرته مع الجماعة، ولهذا يتشرب الفرد في عملية التنشئة الاجتماعية أعراف الجماعة

وقيمها، فالضمير عندهم هو دور الفرد في تكوين أو قبول المعايير الاجتماعية والمسؤوليات الأخلاقية.

وقد اعتبر (دوركايم)، الضمير بأنه نسق محدد من المعتقدات والمشاعر العامة لدى أعضاء المجتمع، وأنه نتاج للقيم والمشاعر المشتركة.

أما علماء النفس فيعتبرون الضمير مكون من مكونات الشخصية، أو نسق يُمثل المبادئ الخلقية ويدعو إلى انضباط السلوك وفق معاييرها، وعدم الخروج على القواعد والأعراف والقيم الأخلاقية التي تعارف عليها المجتمع، وهو يُثيب ويكافئ الشخص بالراحة النفسية إن تصرفت وفق القواعد الأخلاقية، ويعاقبها بوخز الضمير وتأنيبه إن تجاوزت تلك القواعد الأخلاقية وتجاهلتها، مما يوصله إلى عدم الشعور بالراحة والمتعة، وتفضيل الموت على الحياة من خلال الانتحار.

وعندهم أن الضمير يمارس عمله داخل الشخصية على المستويين الشعوري واللاشعوري، وقد نال الضمير حظاً وافراً من اهتمام الفلاسفة وخصوصاً الفلاسفة المعاصرون، واختلقوا في بيان علاقة الضمير بالقيم الأخلاقية، فأصحاب الاتجاه التجريبي (جون ستيوارت مل، وديفيد هيوم)، يرون أن الضمير هو مجموعة

من الوجدان والعواطف، وأن الضمير يقع في القلب وليس في العقل.

أما أصحاب الاتجاه العقلي (ديكارت)، فهم يعتبرون الضمير ملكة عقلية مستقلة عن بقية الملكات الإنسانية، وأن هذه الملكة لها من القداسة والسلطة ما يجعلها مصدر الأحكام على الإنسان وأفعاله، وهي صائبة دائماً، لا تخطئ وهي التي تميز بين الأفعال الخيّرة والشرّيرة.

وهناك أصحاب الاتجاه الحدسي كما سبق ذكره، الذين يقولون بوجود مبادئ أخلاقية فطرية في طبائع البشر تتصف بأنها ثابتة لا تقبل التغيير، وأنها واضحة بذاتها لا تحتمل جدلاً ولا تقبل برهاناً، والضمير عندهم يعمل ذاتياً كما تعمل العين وكما يعمل العقل.

والضمير مما يُميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، لهذا اهتم به الإسلام اهتماماً كبيراً، ويحتل مكانة ثابتة، ومن مسمياته: البصيرة، والقلب: {وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه}، وقوله تعالى: " **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**" **(غافر:١٩)** . والضمير موجود وجوداً معنوياً في وعي الإنسان وليس له وجوداً مادياً كسائر أعضاء الجسم، فوجوده كوجود العقل.

والضمير له علاقة قوية بالذنوب والتوبة، فالإنسان الذي يرتكب ذنباً أو يفعل معصية يشعر بوخز الضمير، وهو ألم نفسي ينشأ عن وعي الإنسان بأنه عمل عملاً سيئاً، أو لا أخلاقياً، وبالتالي شعوره بتأنيب الضمير يأخذه إلى العمل الإيجابي وهو التقرب إلى الله والتوبة عن الفعل السيء أو المعصية، وبالتالي الابتعاد عن فعلها مرة أخرى.

إن الضمير ضابط من أهم ضوابط حركة الفرد والمجتمع، ومنظم لسلوك الأفراد والجماعات، وهو إنساني شمولي، ليس له علاقة بجنس أو لون أو لغة أو مكان، يزداد تأثيره كلما زادت علاقة الإنسان بقيم الدين والأعراف والعادات والتقاليد، وكلما زاد مستوى الفرد والمجتمع من المحصلة الفكرية والثقافية، وهو من المكونات الأساسية للحضارة الإنسانية، وراسم لمعالم رقيها أو انحدارها، وهو المحدد لسلوك الفرد تجاه كل ما يحيط به من موجودات، حية أو جامدة، من مخلوقات وبيئة، وكلما ارتقى الضمير ارتقى سلوك الأفراد والمجتمعات، وكما أن الضمير علاقة مشتركة بين الإنسان وأخيه الإنسان، كذلك هو محرك لعلاقة صاحبه بغير الإنسان من حيوان ونبات وجماد.

إن الإنسان صاحب الضمير الحي، إنسان فاعل ومنتج ومخلص، أين ما تواجد، في البيت، في المسجد، في الشارع، في العمل. الأب صاحب الضمير، والأم صاحبة الضمير يُخرجان جيلاً عظيماً، المعلم صاحب الضمير يُخرّج طلاباً على درجة من الوعي والفهم، العامل صاحب الضمير، الطبيب، والمهندس، والشرطي، والتاجر، كل صاحب ضمير في مكان وجوده هو لبنة صالحة في بناء هذا المجتمع، لهذا تهتم المجتمعات والحكومات وأصحاب الفكر بترسيخ الضمير في النفوس، والعمل على تهذيبه وتقويمه، فحينما يكون الضمير يكون العطاء والخير، وكلما تراجع الضمير تراجع المجتمع وتخلف، وتدهورت علاقات أفراده وتفسخت أواصره.

ونحن كشعب فلسطيني بحاجة ماسة لإعلاء رقابة الضمير، على المستوى الفردي والجماعي، حتى ينصلح الحال بعد أن فسدت الضمائر، وخربت الذمم، وتراجعت بشكل واضح، نحن بحاجة إلى ضمير السياسي في تعاملاته وعلاقاته، بحاجة إلى ضمير التاجر والمزارع، حتى لا يفسدوا في الأرض على حساب البسطاء من الناس، بحاجة لضمير صاحب العمل أياً كان نوع العمل، فلا يأكل حقوق العاملين أو يزيدهم إرهاقاً في العمل،

نحن بحاجة إلى ضمير الأب والأم، في العلاقة بينهما، وفي تربية الأولاد، نحن بحاجة إلى ضمير الجار مع جاره، والقريب مع قريبه، والأخ مع أخيه، نحن بحاجة إلى ضمير الغني مع الفقير، والقوي مع الضعيف، نحن بحاجة إلى ضمير الحاكم مع المحكوم، نحن بحاجة إلى ضمير العلماء ورجال الدين لتوحيد صفوف المجتمع ونزع أسباب الفرقة والشقاق.

وكلما كان الضمير حياً في نفس صاحبه، كلما دفعه للعمل والعطاء بإخلاص، فأصحاب الضمائر الحية هم الأكثر نفعاً لأنفسهم ومجتمعاتهم وللإنسانية عامة، الضمير هو الذي جعل الصادق صادقاً، هو الذي يدفع بالعامل ليخلص في عمله دون رقابة من صاحب العمل، هو الذي يجعل السياسي يقدم مصلحة الوطن والشعب على مصلحة التنظيم والحزب، هو الذي يجعل من التاجر والمزارع أميناً في عمله، فلا يغش في تجارته ولا زراعته، الضمير الحي هو الذي يجعل الناس يتعاونون فيما بينهم على المصلحة العامة وخير البلد.

الضمير الحي أو النفس اللوامة هي التي تمنع الإنسان من ارتكاب جرائم القتل أو السرقة أو انتهاك أعراض الناس، قولاً أو

فعلاً، الضمير الحي هو من يمنع الإنسان من خيانة وطنه وشعبه، ويكون عضواً نافعاً لمجتمعه.

منظومة القيم الأخلاقية

قيمة النظام

من أكثر القيم الأخلاقية قيمة في حياة الإنسان فرداً أو جماعة قيمة النظام، وذلك لمردود هذا الخُلق الإيجابي على تقدم الإنسان ورقيه، وفقدان النظام يؤدي إلى أن تصبح حياتنا مزيجاً من الفوضى والاضطراب في شتى مناحي الحياة، وهي تعني التخلف والانقلاب على كل شيء جميل في الحياة.

عندما يغيب النظام يسود التخبط والارتجال والعشوائية، مما يُوصل إلى اختلال الموازين في المجتمع في علاقة الفرد مع نفسه، وعلاقته بغيره، فتضيع الحقوق والواجبات بين ما يجوز وبين ما لا يجوز. والمتابع لسلوك الأفراد والمجتمع في حياتنا، يكاد أن يلمس أمراً خطيراً وهو اختفاء قيمة النظام من حياتنا بشكل ظاهر، مما ترتب عليه ما سبق ذكره، مضافاً إليه تداخل كثير من الخطوط فيما بينها فما عدنا نعرف أبيضاً من أسود.

ومن أمثلة غياب النظام من حياتنا وهو مثال بسيط مدى احترامنا للمواعيد، فنادراً ما نحترم الموعد في حياتنا، نأتي بعد

الموعد بساعة أو ساعتين، وربما لا نأتي، ونتحجج بأي حجة ترد على البال، ومنا من يخبرك أنه سيزورك الغد بدون تحديد ساعة معينة، ولا عليه ما يلحق بالطرف الآخر من ضرر ومتاعب نفسية ومادية.

وهذا الأمر إن دل فإنما يدل على أن حياتنا تسير دون نظام يضبط حركتها، وهذه السلوكيات ترسخ فينا مع الوقت اللامبالاة والفوضى في التعامل مع الناس، وفقدان الثقة، مما يؤدي إلى تعطيل المصالح وإهدار الوقت وإلحاق الضرر بالمجتمع.

والخطير في الأمر السلبية الواضحة في ردود وانعكاسات أفعال الأفراد تجاه الدعوة للنظام والانضباط، على مستوى البيت أو ساحة العمل أو المدرسة، وممن من، من المثقفين والمتعلمين، فتسمع منهم كلمات غريبة وعجيبة، "خليها على الله"، أو "خليها تمشي على البركة"، أو "بلاش تحبكها قوي"، أو "ما تبقاش حنبلي"، أو "دع الملك للمالك"، أو "هو أنت عاوز تقيم الدين في مالطا"، وغيرها من عبارات لتبرير الخلل في الفكر والسلوك.

نسي هؤلاء أن الله لما أوجد هذا الكون أوجده وفق نظام دقيق ومحكم، ومن هنا فإن الله لا يحب لعباده الفوضى ولا

الارتجال والعشوائية، وبالتالي أي عمل خال من النظام هو عمل خال من البركة والديمومة التي يتغافل عنها كثير من الناس، وكثير منا يشكو الاضطراب وعدم الانضباط في حياته، نقول له ابحث عن النظام، ستجد العلاج.

كم جلب النظام على صاحبه الفائدة والمحبة والرقي، وفي المقابل كم جلبت الفوضى على صاحبها من الشقاء والمتاعب وكراهية الناس، وقد جعل الله النظام هو حياة كل المخلوقات، من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان إلى عالم الطيور الزواحف، إلى عالم الحشرات وعالم الأسماك، كل شيء قائم على النظام، في التزاوج والتوالد والتكاثر، في علاقاتها بالقطيع، من هنا كان ضرورياً على الإنسان أن يعي هذه السنة من سنن الله في الكون، الجندي لا يمكن أن ينتصر إلا بالنظام، والطالب لا يمكن أن ينجح إلا بتنظيم وقته، وهكذا التاجر والموظف والسياسي، وغيرهم.

إن الإنسان كائن اجتماعي يعيش مع الآخرين وبالآخرين، وهذه الحياة منضبطة بقوانين تنظم الحقوق والواجبات في المجتمع، هذه القوانين دينية أو فطرية او مدنية كلها تعمل على استقرار المجتمع، والمصلحة منها إقامة مجتمع متعاون متقدم

ومزدهر، تنتشر بين أفراده روح المحبة والألفة، والأخوة، يبني ويُعمر ويرتقي.

والمتابع لحركة النهضة وبناء الحضارات، مع تنوعها وتعددها، يجد أن القاسم المشترك بينها جميعاً هو النظام، وما تقدمت أمة على أخرى ولا انتصر شعب على شعب إلا بالنظام، لهذا لم يكن غريباً أن يرسخ الإسلام قيمة النظام في روح وسلوك أتباعه، نظام في أداء الصلاة، في أوقاتها وأفعالها وألفاظها، ركوعاً وسجوداً وجلوساً، ونظام في أداء مناسك الحج، يبدأ بيوم محدد وينتهي في يوم محدد، لا يتقدم نسك عن نسك، نظام دقيق في كل حركة من حركاتهم، وهكذا نظام في كل صغيرة وكبيرة في حياة المسلم، نظام في العلاقات الأسرية والعلاقات الاجتماعية، نظام في السلم ونظام في الحرب، نظام في المعاملات المالية والأحوال الشخصية، إنه دين النظام والانضباط.

إن النظام هو الحياة، تخطيط سليم، وتحضر ورقي في الفكر وفي السلوك، على مستوى الفرد والجماعة، فالنظام جزء من المسؤولية الملقاة على عاتق الأفراد، والتي من واجب كل فرد القيام بها، وهو أقصر الطرق لتحقيق الآمال والطموحات وبلوغ

الأهداف، وبالنظام نوفر الوقت والجهد والمال، وتكون الحياة أكثر بهجة وجمالاً، ويعيش فيها الإنسان أكثر سعادة.

ونحن في فلسطين أحوج ما نكون إلى النظام، نظام في العلاقات فيما بيننا، نظام في العمل، في أي منحى من مناحي العمل، الخدماتي والانتاجي، في مدارسنا ومستشفياتنا، في بيوتنا وقرانا ومدننا، نظام في علاقاتنا التنظيمية والحزبية، نظام في عملنا السياسي والعسكري، بحاجة إلى نظام في نشاطنا الدعوي الديني، نظام في بيعنا وشرائنا، نحن في صراع مع عدو منظم، كل شيء عنده بحساب دقيق، ولن نملك القدرة على مواجهته وتحديه، إلا إذا ملكنا نفس النظام الذي ينطلق منه هذا العدو، فبالنظام نحيا ونتقدم ونتحضر ونقوى ونصنع النصر والامجاد .

قيمة الحب

الإنسان هو أعظم خلق الله في هذا الكون، " **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**" **(الإسراء:٧٠)**، ومن هنا جاء اختلافه عن بقية المخلوقات، كل المخلوقات تتكون من جسد وروح، إلا الإنسان زاد عليها بالعواطف والانفعالات والأهواء والرغبات، وهي تختلف كلياً عن عمليات التصور والتفكير التي هي من خصائص العقل.

والعواطف تجارب وجدانية، تتملك الإنسان ولا فكاك منها، فإن زاد ظهورها في سلوكه ولم يعد له سيطرة عليها وصف بـ "عاطفي"، وهذه صورة سلبية للعاطفة، أما صورتها الإيجابية فهي التي تدفع الإنسان إلى سلوك معين ناحية إنسان أو حيوان أو فكرة معينة، مثل عاطفة الحب أو الكره، فالإنسان قد يُحب شخصاً آخراً أو فكرة من الأفكار، وقد ينفر من هذا الشخص أو تلك الفكرة.

وعاطفة الحب أو قل قيمة الحب من العواطف الطبيعية في النفس الإنسانية، وليست أمراً شاذاً، بل الشاذ هو تبلد الإحساس وتحجر العواطف وانغلاق القلوب. والكثير من الناس ينظرون إلى هذه العاطفة نظرة متدنية لا تليق ولا تتفق مع سموها، وقيمتها وأثرها الإيجابي. ولم يغفل الإسلام هذه القيمة فأولاها اهتماماً كبيراً، وربطها بالعقيدة والإيمان، ودعا الناس للتحبب والتودد، وتكلم علماء الإسلام عن الحب كلاماً جميلاً راقياً لا نجد له مثيلاً في ثقافات الأمم الأخرى، ومشاهير علماء الإسلام أفردوا كتباً كاملة عن الحب كالإمام ابن حزم والغزالي وابن قيم الجوزية، هؤلاء قديماً، وحديثاً كتب الكثيرون، منهم الدكتور محمود الشريف وغيره.

ومن اهتمام الإسلام بها أن القرآن الكريم أولاها الحديث، كذلك فعلت السنة النبوية: **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (آل عمران: ٣١)** ، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم: **(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يُحب لنفسه).** (البخاري/١٣)، فالحب في العلاقة الاجتماعية هو القاعدة القوية والراسخة والتي منها تنطلق تفاهمات الناس وتعاونهم ومصالحهم.

يُعرف الإمام الغزالي الحب بأنه "عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المُلذ، فإن تأكد الميل وقوي سُمي عشقاً"، ويُعتبر الحب من الطبع السليم، وهو من مدركات القلب والتي يسميها الغزالي بـ (الحس السادس)، وقد أفرد الإمام الغزالي فصلاً كاملاً عن الحب في كتابه (إحياء علوم الدين)، أسماه (بيان حقيقة المحبة، وأسبابها)، يرى الغزالي أن هناك أموراً يُحبها الإنسان لذاتها وليس لأنها تُعد تكميلاً لذاته، وهذا في نظره هو الحب الحقيقي "أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه"، والحب عنده هو ليس بسبب جمال ظاهر، ولكن بمجرد تناسب الأرواح، كما ورد في الحديث الشريف: (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)، وعند الغزالي كما عند غيره من العلماء والمفكرين الإسلاميين الحب الحقيقي هو لله تعالى، ولا محبوب إلا الله، ومن حُب الله معرفته والنظر إلى وجهه الكريم.

لهذا يؤكد القرآن على أن المؤمنين هم وحدهم الأشد حباً لله " **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ" (البقرة:١٦٥)**" ، لأنهم هم وحدهم من أدرك اشتمال ذات الله على الكمالات، وهم من عرف الله وما يليق به تقديساً وتعظيماً.

والإنسان السوي **ينطلق** من الحب الإلهي إلى غيره من دوائر للحب، حباً راقياً يتناسب مع الروح التي هي من الله، " **قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**" **(التوبة:٢٤)** هذه هي دوائر الحب عند الإنسان، كل الإنسان، وليس هناك شيء يحبه الإنسان لم تذكره الآية، فعاطفة الحب إن لم تكن في إطار الحب الإلهي فلا قيمة لها، ولا ديمومة فيها، فما كان لله دام واتصل.

ومن أعظم التزامات الحب في الله تجاه المحبوب، الإيثار، فالمتحابون في الله يُؤْثر كل واحد منهم غيره على نفسه، ولو كان في ذلك مهلكته وموته، لا ينظرون للمصالح والمنافع المادية بأي نظرة، وهذا ما لا يمكننا أن نجده في أي علاقة إنسانية أخرى، فعلاقات الناس بعيداً عن الحب في الله قائمة على المصالح الشخصية الدنيوية المادية، والتي يحرص كل واحد منهم على نفع نفسه وربما لا يعنيه مصالح الآخرين، وبالتالي لا يمكن لأمثال هؤلاء أن يُقدّموا شيئاً لغيرهم أو لمجتمعهم، لحرصهم على التمتع واستغلال الآخرين خدماً لهم ولمصالحهم.

ومن أعظم الحب، حب الله للإنسان، (إن الله إذا أحب العبد نادى جبريل فقال: إن الله يحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض). (البخاري/٥٦٩٣)، هذا أعظم الحب، ولا حب بعده، حب أهل السماء، وحب أهل الأرض، الحب الراقي البعيد عن المصالح والغايات.

إن المحب هو أقدر الناس على العطاء بلا حدود، وهو الأكثر نفعاً واخلاصاً، وهو الأقل أذىً وضرراً، وهو الأجمل أخلاقاً، وهو الأكثر سماحة في معاملاته، بيعاً وشراءً، وهو الأعلى نفساً، والأرق مشاعراً، والأطيب قلباً، وهو الأكرم عشرة في أهليه وعشيرته، وهو الأعظم صبراً في مواجهة المحن والصعاب والشدائد، هو أول من يُلبي نداء المستغيث والمكروب والملهوف، فهو البلسم الشافي لجراح الناس، عُبّاد الليل فرسان النهار، وهو أقل الناس تعلقاً بالدنيا ومغرياتها، فلا يُغريه منصب أو مال أو جاه، وإن امتلك تلك جعلها مطية لإسعاد الآخرين.

والإسلام لا يُنكر على الإنسان أنواع الحب الأخرى من متع الحياة، وحديث النبي صريح في هذا (حُبب إليّ من الدنيا النساء، والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة).

(النسائي/٣٩٣٩)، لكن هذا الحب للنساء في إطاره الشرعي، حب الزوجة وحب الأم وحب البنت وحب الأخت، وأما غيرها فانحراف عن الجادة والشرف والحق، فلا يعترف الإسلام بأي علاقة بين رجل وامرأة خارج العلاقات الأربع سابقة الذكر، ولا يرتضيها أهل النخوة والشرف والمروءة لأنفسهم.

نحن في فلسطين أحوج ما نكون لنشر قيمة وعاطفة الحب فيما بيننا، فمع طغيان روح المادية على علاقات الناس، وتراجع قيم المودة والمحبة والاحترام والتعاطف، وفي ظل صراعنا مع عدونا الإسرائيلي، وتخاذل القريب والبعيد عنا، علينا أن نزيد من نشر روح المحبة على مستوى الأسرة، والحي والمدرسة، وأماكن العمل، وبين شرائح المجتمع المتعددة، بين المسؤول والعاملين معه، بين القائد وجنوده، بين الغني والفقير، بين الطالب والمعلم، بين الجار وجاره، ليس لنا إلا الحب يأخذ بأيدينا ننطلق في طريق النصر والتحرر والرقي والرفاه.

قيمة الاحترام

الاحترام، كلمة شائعة بيننا، نصف بها شخصاً أو رأياً أو شعباً، فنقول هذا شخص محترم، وهذا رأي محترم، وهذا شعب محترم، وسبب الوصف هو تميز خاص أظهره هذا الشخص أو الشعب أو الرأي، وفي نفس الوقت نطلق أوصافاً مضادة إذا فُقد هذا التميز.

والاحترام مرتبط بالتقدير، فمن يحترم إنساناً أو رأياً، يعني أنه يقدره ويعترف بقيمته ويعطيه حقه الذي ينبغي له. والاحترام قيمة شاملة لها علاقة بكثير من القيم الأخرى في حياتنا الخاصة والعامة، وهي تبدأ من احترام الشخص لنفسه، وينطلق منه لاحترام الآخرين، ومنها لبقية المجالات، ولو كانت هذه القيمة سلبية فسينعكس ذلك بالسلب على تصوراته ومسلكياته. واحترام الإنسان لنفسه كونه عضواً في المجتمع ينعكس على احترامه لغيره بغض النظر عن جنسه ولونه ودينه، لأنه يحترم فيه الإنسانية، الحياة،

لهذا جعل الله الاعتداء على النفس الإنسانية الواحدة كالاعتداء على الناس جميعاً.

وقيمة الاحترام شمولية تتداخل وتشمل جميع مجالات الحياة، احترام الدائرة الأولى للإنسان، الأسرة بداية بالوالدين، توقيرهما والإحسان إليهما تقديراً لدورهما في حياة الإنسان، صغيراً وكبيراً، وبهذا جاء النص القرآني: " **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا" (الإسراء:٢٣)** ، ثم تكبر دائرة الاحترام فيكون احترام الصغير للكبير، واحترام الأخ لأخيه، والجيران بعضهم لبعض، ليصل إلى احترام النظام العام والدولة والقانون، لما يعود عليه كل ذلك من أمن واستقرار.

ومما يتصل بقيمة الاحترام، احترام القيم الأخلاقية والدينية، لأن هذه القيم تمثل صمام الأمان في المجتمع، وعلى أساسها تتم التعاملات بين الناس، وهذه القيم (الأخلاقية والدينية)، تعمل على صيانة العلاقات الإنسانية من كل ما يعكر صفوها، بالإضافة لإقامة التوازن بين شرائح المجتمع البشري، غير أنها تعمل على إعلاء الفضائل، وإبعاد الرذائل، ولهذا كله مردود كبير على تقدم المجتمع ورقيه وأمنه وسعادته،

ومما يتعلق بقيمة الاحترام أنها تتعدى احترام الإنسان للإنسان، إلى مجالات أخرى، فهي تشمل احترام الحيوان لأنه من خلق الله، وله علينا حق الرعاية والرحمة والبُعد في التعامل معه عن القسوة والتعذيب، وعدم تكليفه بما لا يطيق. كما تشمل قيمة الاحترام، احترام البيئة المحيطة بنا من شوارع وطرق وحدائق وأشجار، وذلك بالعناية بها والمحافظة عليها، وعدم العبث فيها وإهمالها وتلويثها، ونحن نعلم حجم المردود الإيجابي، النفسي والمادي لنظافة البيئة على الإنسان والمجتمع، كذلك من متعلقات قيمة الاحترام، احترام مكانة الوطن، واحترام العادات والتقاليد الحسنة والإيجابية في المجتمع، لما للوطن من مكانة في النفس، ومن أهميته في الحياة، ولما للعادات والتقاليد من صيانة لثقافة المجتمع وشخصيته، والمحافظة على الهوية، ومكانته بين الأمم، ولما لها من تأثير على الدفع لتقدم المجتمع ورقيه وازدهاره.

الاحترام متعدد الجوانب، متشعب الاتجاهات، احترام الوقت أي تقديره والحرص عليه وعدم تضيعه فيما لا ينفع، خاصاً به أو بغيره. احترام العمل أياً كان نوع هذا العمل خاصاً أو عاماً، وكل عمل وافق مقاصد الشريعة هو عمل صالح نافع، احترام ذوي

الحاجات الخاصة، وتقديم ما يستطيع الشخص لمعاونتهم وخدمتهم، وعدم السخرية والاستهزاء بهم، وغير ما ذكرت كثير.

إن التزام الإنسان بقيمة الاحترام أولاً يعطي انطباعاً جيداً عن الشخص نفسه، ثم ثانياً يجعل منه إنساناً أكثر إيجابية وفاعلية في المجتمع، وقدرته على العطاء أكثر، ومن ناحية أخرى قدرته على التفاعل مع المجتمع أسهل وأسرع، ثم انتشار هذه القيمة في المجتمع مؤشر على رقي هذا المجتمع، وعلامة على استقراره وترابطه، وتفاعل العلاقات الطيبة بين مكوناته، وخلوه من الصراع الناشب بين فئات وشرائح المجتمع المتنوعة.

من اشكال الاحترام، احترام خصوصية الإنسان، فكرياً وثقافياً ودينياً، فلا يصح لنا أن تجاوز حدود الأدب واللياقة في التعدي على خصوصيات الآخرين، وكما لا يرضينا أن يتعدى الآخرون علينا، من الجانب الآخر علينا ألا نتعدى عليهم: (كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه). (البخاري/٧٢٤٢)، ومن هنا يأمن كل فرد في المجتمع، فتزيد دافعية التعاون والعطاء.

والاحترام لا يقف عند حدود الإنسان والحيوان، بل ينطلق إلى ما هو أعم، إلى احترام الذوق العام، من طعام وشراب ولباس

وفكر، وطلاء البيت بما لا يتنافر مع الذوق العام، على المرء أن يحترم الجماعة ولا يخرج على أعرافها في أكلها وشربها، إلا إن كان في ذلك ضرر أو مخالفة للدين.

على الشخص أن يُظهر احترامه لوطنه، وتراب وطنه، فلا يتهاون في الدفاع عنه، والإخلاص في التعاطي مع قضاياه الهامة، فإن تعرض لاعتداء عليه أن يكون سباقاً في الدفاع عنه، كل حسب قدراته وامكاناته، وألا يمكن لأعداء هذا الوطن أن ينالوا منه، وشعبنا الفلسطيني خير من فدى بلده وأرضه، ودافع عنها بكل ما يملك.

ونحن كمجتمع فلسطيني على الخصوص أحوج ما نكون إلى نشر قيمة الاحترام فيما بيننا، وخصوصاً بعد أن غيبت المطامع والأهواء والرغبات والحاجات والحسد والغيرة وتراجع قيم الدين، وبعد أن تخلخلت وتفككت العلاقات الأسرية والاجتماعية، ووصلنا إلى مستوى خطير من التردي الأخلاقي، فيما بين الأبناء والآباء من ناحية، والأخوة من ناحية، والجيران فيما بينهم، وعلاقة الطالب بالمعلم، وعلاقة الموظف بالمسؤول، وعلاقة العامل بصاحب العمل، للأسف أكثرها علاقات ممزقة ومهترئة.

كيف لنا أن نخرج من هذا الجو غير الإنساني، وغير الطبيعي، لا بد لنا من أن يعود إلى الحصن الحصين، إلى قيمنا العريقة وأولها الاحترام، هذه القيم التي تستمد أصالتها وقيمتها من ديننا وتشريعنا، وإذا استمر الحال على ما هو عليه فليس أمامنا إلا الهاوية والضياع والتأخر، وانتشار الجريمة، وفقدان الأمن والأمان، حمى الله شعبنا ووطننا.

قيمة التسامح

التسامح؛ وهو العفو عن الإساءة، ومن ناحية أخرى هو رفض الممارسات والأفعال التي تقوم على العنصرية والتمييز الديني والعرقي، وكما هو معروف فلقد خلق الله البشر مختلفين في أجناسهم ولغاتهم ومعتقداتهم: " **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) سورة هود**، ولكن لا ينبغي أن يكون هذا الاختلاف مبرراً للنزاع والشقاق بين الشعوب، بل الواجب أن يكون هذا التنوع والاختلاف دافعاً إلى التعاون والتعارف من أجل الوصول إلى منفعة البشرية، والنهوض بالحياة، وتحصيل الرفاهية للإنسانية جميعاً: " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات:١٣)**، والتعارف هو الخطوة الأولى في طريق التآلف والتعاون في جميع المجالات.

وكانت وما زالت وسيلة التعارف بين الناس هي اللغة، التي يتخاطب بها الناس ويتبادلون من خلالها أفكارهم ومشاعرهم ومطالب حياتهم، وهذا الحوار القائم بين الناس والمعتمد على احترام كل طرف للآخر من أهم ما يعنيه التسامح، فما بيننا من اختلافات في الرأي والمعتقد لا يجوز أن تفسد ما بيننا من مودة وأخوة في المكان أو الإنسانية، فكما أُحب أن يكون لي رأي خاص ووجهة نظر، كذلك للآخرين أراءهم ووجهات نظرهم، ومطلوب مني أن أحترمها، فلكل إنسان شخصيته واستقلاليته، وحينما جعلنا الله متميزين كل منا عن الآخر ببصمة إبهامه، جعل ذلك مدخلاً للتميز في بقية أمور الحياة، ومن هنا لا يجوز أن يضيق صدر الواحد منا من وجهة نظر غيره أو رأيه، وبالتالي ليس لأحد أن يحتكر الحق والصواب لنفسه، متهماً الآخرين بالضلال والفساد، وقد حفظت ذاكرة الإنسان قول الإمام الشافعي رحمه الله: "رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب".

وقد اشتهر الدين الإسلامي عقيدة وشريعة، ومن بعده الفكر الإسلامي الذي انتجه العقل المسلم بالتسامح، ووضع لنا من قواعد التسامح ما أبهر من خلاله عقول الباحثين والمفكرين على مدار تاريخ الإسلام، يقول الشيخ محمد عبده: "إذا صدر

قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر"، ثم يعقب الشيخ: "فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا".

والحوار في هدفه الأسمى هو نشر التسامح بين المختلفين من الناس، وتعبيد الطريق للتعاون المثمر والذي يعود على الجميع بالخير والبركات. والدين والعقل يرفضان التشدد الصوري اللفظي، كذلك التشدد المسلكي، فهو يرفض كلياً أسلوب التجريح الشخصي، والشتائم والسباب، ويعتبر الخروج عن الموضوعية دليلاً على ضحالة الفكر وقصور في الحجة وفقر للمنطق، وهو لا يليق بالإنسان الذي كرّمه الله، وفضله على كثير ممن خلق، وميزه بالعقل.

ومن مظاهر التسامح في ديننا الإسلامي الحرية الدينية التي يتمتع بها غير المسلمين في ظل الدولة الإسلامية، "**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**" (**الممتحنة**:٨) ، كذلك كفل حق حرية الاعتقاد {لا إكراه في الدين}، وهذه النصوص لم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن

الواقع، فقد عاش غير المسلمين أجمل أيام حياتهم في ظل الحكم الإسلامي والدولة الإسلامية، ولم يُضيّق عليهم في شيء من عبادة وتجارة وسفر وتنقل، وتوظف وعمل وتولي أعلى المناصب الإدارية والسياسية. كذلك كان لهم استقلالية التشريع والقضاء فيما يتعلق بأحوالهم الشخصية.

إن التسامح من الأخلاق الحسنة والحميدة التي حض الدين بكل عناوينه أتباعه على التحلي بها، والتي اتصف بها كل الأنبياء والمرسلين، والتي هي من مقاصد شريعتنا الإسلامية، (بشروا ويسروا ولا تنفروا). (صحيح أبي داود/٤٨٣٥)، و(تبسمك في وجه أخيك صدقة). (مشكاة المصابيح/١٨٥٣)، وقد كان النبي محمداً نموذجاً وقدوة للتسامح، يوم أن تسامح عن الذين وقفوا في وجه الدعوة وحاربوه وقاتلوه وأخرجوه من دياره، يوم أن عفا عنهم وأطلق سراحهم يوم فتح مكّة، ومن قبل يوم بدر لما أطلق سراح أسرى المشركين، وهكذا رحلة المسلمين مع التسامح رحلة طويلة لأنها من روح الدين وأهدافه وغاياته.

وإن حدث بعض القصور في هذا الجانب على فترات من تاريخ الإسلام، فإن هذا يرجع لعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية استثنائية، فلما تكون أحوال عموم الناس الاجتماعية

والاقتصادية متردية، وفي المقابل تتمتع الأقلية بظروف اجتماعية واقتصادية مترفة بحكم مراكزهم الإدارية والمالية والمهنية، كل ذلك قد يؤدي إلى خلل في العلاقة وسوء تصرف من عوام الناس، ومن الغوغاء في مقابل غطرسة وكبرياء وغرور هذه الأقليات، لكنها في مجملها أحداث استثنائية لا تؤثر على القواعد الأساسية للتشريع الإسلامي في العلاقة بين المسلمين وغيرهم.

ومن مظاهر تسامح المسلمين مع غيرهم اباحة الزواج من نسائهم وتناول طعامهم، ومشاركتهم في البيع والشراء، وقبول شهاداتهم أمام القضاء، وتلقي التعلم والعلاج على أيديهم.

إن التسامح قيمة أخلاقية عامة وشاملة، تعم أركان المجتمع كله، لا فرق بين لون ولون، وجنس وجنس، ولغة وأخرى، تعم الإنسانية بعمومها، تنشر المودة في النفوس، وتقيم أواصر العلاقات المتينة بين أفراد المجتمع، تدفع للتعاون والتراحم، حتى يصبح المجتمع كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً، لا تعرف فيه فقيراً أو ضعيفاً أو ذو حاجة.

ونحن كشعب فلسطيني صورة جميلة ورائعة للتسامح، لا فرق في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والوظيفية، والكل يتعاون على مصلحة الوطن ومواجهة العدو المشترك،

ونحن بحاجة أكبر لإظهار روح التسامح وترسيخه في التعاملات بين الناس أكثر وأكثر، لأن زيادة مساحة التسامح تزيد من قوة الترابط والتعاون والتآلف، مما يجعلنا أكثر قوة في مواجهة عدونا الإسرائيلي، كذلك في مواجهة الظروف الصعبة التي تواجه شعبنا من حصار ومؤامرات داخلية وخارجية.

قيمة الرحمة

الرحمة هي بمعنى الرقة والتعطف، والرحمة قيمة رفيعة القدر بالغة الأهمية، وهي ليست عاطفة عارضة ترتبط بموقف معين، إنما هي خُلق ثابت متأصل في النفس الإنسانية. والرحمة تشمل كل قيم السلوك الفاضل في التعامل مع البشر، ومع الكائنات الأخرى، ومن هنا كانت الرحمة هي مقصد الرسالات السماوية، وهي الهدف والغاية لمبعث الأنبياء: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}، وقد تكرر ذكر الرحمة في القرآن الكريم مئات المرات وذلك لبيان أهميتها في الحياة على العموم. والمسلم قبل أن يقوم بأي عمل يفتتحه بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم)، وهذا تأكيد على أن الرحمة حاضرة وباستمرار في وعي الإنسان، وهي اسم وصفة لله تعالى، والله يحب أن يكون عباده على صفته، وهي من أبرز صفات الله فوجب على الناس أن يتراحموا فيما بينهم.

مع كل ما سبق ذكره من تركيز القرآن على قيمة الرحمة وحث النبي صلى الله عليه وسلّم عليها: (الراحمون يرحمهم الرحمن). (الترمذي/١٩٢٤)، وقوله: (لا تنزع الرحمة إلا من

شقي). (مشكاة المصابيح/٤/٤٢٥)، مع هذا أصبحنا نفتقد لهذه القيمة ولهذا الخُلق في حياتنا وبشكل صارخ، خلت منه تعاملاتنا اليومية، وعلاقاتنا الأسرية والاجتماعية، فما عدنا نلمس هذا الخُلق فيما بيننا، الأب الذي يقسو على أبنائه، والأولاد الذين يعقون آباءهم، ويتنكرون لهم ولمعروفهم، والزوج الذي يظلم ويتجبر على زوجته، والزوجة التي تقسو على زوجها، والأخ الذي يأكل مال أخوته، والمسؤول في مكان العمل الذي يظلم العامل بأكل أجرته، وتحميله ما لا يطيق من عمل، وهكذا في مجالات الحياة المتنوعة، ظلم فوق ظلم.

قال الشيخ الغزالي: "إن القسوة في خُلق إنسان دليل نقص كبير، وفي تاريخ أُمة دليل فساد خطير، وهي علة الفسق عن أمر الله، وسر الشرود عن صراطه المستقيم"، وصفحات الحوادث مليئة بمئات القصص والحكايات عن القسوة والظلم، من أصحاب القلوب القاسية والتي قسوتها أشد من الحجارة، مع أن مجتمعاتنا معروفة بتقاليدها وقيمها الدينية المنطلقة من التسامح والمحبة والرحمة.

وقيمة الرحمة تتعدى عالم البشر، لتشمل الحيوان، فالرحمة به مطلب ديني وأخلاقي، فلا يجوز للإنسان أن يُوقع

عليها عذاباً أو أن يحرمها من الطعام، أو يقسو عليها في العمل، وإن أراد ذبحها عليه أن يُحسن ذبحها. لكن للأسف ما نراه يحدث لا يمت بصلة لقيم وأخلاق الدين، فما يفعله الناس ببعض الحيوانات والطيور على سبيل اللهو واللعب لا يُقبل، ويفعله البعض صغاراً وكباراً دون رادع ديني أو أخلاقي، نفس الأمر ما يفعله أصحاب الدواب والبهائم مع دوابهم من تعذيب وعمل لا يتوقف، كل هذا لا صلة له بالرحمة المنشودة.

إن خُلق الرحمة إذا تمكن من نفس الإنسان وترسخ قناعات في عقله، تحول به تلقائياً إلى أسلوب للتعامل مع كل الكائنات، وإذا خلت النفس من هذه القيمة وهذا الخلق (الرحمة)، خرج صاحبه من إطار الإنسانية المكرّمة، ولم يعد يصلح ليكون خليفة لله في الأرض، لأن الرحمة تمثل أرقى درجات السمو الأخلاقي الإنساني، والرحمة مرتبطة بالتسامح والحب لكل الكائنات، بداية بالإنسان مروراً بكل أنواع الحيوان، فلا يمكن أن يكون الظالم والمتعصب والحقود والمتطرف رحيماً.

وقيمة الرحمة تشمل في طياتها كل قيم الخير والحق في هذا الوجود، لهذا ركز الإسلام عليها كثيراً، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلّم أفاضت في الحديث عنها، (ارحموا من في الأرض

يرحمكم من في السماء). (الترمذي/١٩٢٤)، وحديث النبي عن (رجل رأى كلباً يلهث من العطش، فنزل بئراً وملأ خفه ماءً فسقى الكلب فشكر الله له وغفر له)، في المقابل (امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض). (البخاري/٢٣٦٣)، والإسلام لا يُفرّق بين حياة الإنسان وحياة الحيوان، فكلاهما حياة، الواجب صيانتها والحفاظ عليها من كل ما يشكل خطراً عليها، والرحمة تشكل سياجاً منيعاً لحماية الحياة في شتى صورها من الأخطار.

ومن الرحمة إقامة العدل والقانون بين الناس، فالضرب على يد العابثين والخارجين ليس ظلماً، إنما هو عدل ورحمة بالمجتمع، كذلك منع المتاجرين في المخدرات والخمور، وأصحاب المجون والخنا من ممارسة أفعالهم فيها رحمة بالأمة، وحفاظ على قوتها وشبابها، وحمايتها من الشرور والآثام المهلكة، ومن الرحمة بالمجتمع كذلك حمايته من العابثين بوحدته، وحريته واستقلاله.

لهذا يرفض الإسلام كثيراً من تصرفات الإنسان والتي يصفها بالرحمة وهي لا صلة لها بالرحمة، مثل ما يُسمى بالقتل الرحيم، للتخلص من المرضى الميؤوس من شفائهم، الدين يعتبره قتلاً، وامتهاناً للحياة الإنسانية، ولا صلة له بالرحمة حتى وإن كان

بموافقة المريض نفسه، لأنه ليس من حق أحد أن يُنهي حياته أو حياة غيره، صاحب الحق الوحيد في انهاء الحياة هو واهب الحياة وهو الله سبحانه.

والرحمة قيمة خلقية عامة وشاملة، لا تقف عند حدود الدين أو اللغة أو العِرق أو اللون، إنما هي تعم الخلائق كلهم، تزرع في قلوبهم المشاعر الطيبة، وتربط بينهم بروابط الأخوة المتنوعة، أخوة الدين أو الوطن أو الإنسانية، فكلنا لآدم وآدم من تراب، والله سبحانه لما دعانا للتخلق بهذه الفضيلة يعلم سبحانه مردودها العظيم على حركة المجتمعات ورقيها وتقدمها.

ومن هنا فإنه وانطلاقاً من ديننا وأخلاقنا يتحتم علينا أن نُعيد النظر في الكثير من سلوكياتنا اليومية، لنرتقي بها إلى مستوى القيم التي تضمن لنا التقدم والرقي والأمن والاستقرار، وحتى ينعم الناس بحياتهم ويسعدوا بدنياهم في جو من الرحمة والتراحم، والمحبة والتسامح، والألفة والتعاون على ما فيه الخير والصلاح للوطن والمواطن.

يبقى علينا نحن أهل فلسطين أن ينظر بعضنا لبعض بعين الرحمة، المسؤول لمن تحته، صاحب العمل للعامل، المدرس مع الطالب، القوي مع الضعيف، والغني مع الفقير، والكبير مع

الصغير، الزوج مع الزوجة، الأب مع الأبناء، الجار مع جيرانه، السلطة الحاكمة مع المواطن، التاجر مع المستهلك، والإنسان مع أخيه الإنسان، والإنسان مع الحيوان، حينها سنستحق الرحمة من الله، والنصر والتأييد والتمكين، ونحيا الحياة الطيبة والكريمة، وسيفتح الله علينا من بركاته وخيراته.

قيمة التواضع

التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته، وهو خلق خاص بالملوك وأجلاء الناس وعلمائهم، وقيل هو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده.

ومع اختلاف الناس في أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم ولغاتهم، إلا أنهم متساوون في الإنسانية، فهم جميعاً يتصلون بأصل واحد وهو آدم عليه السلام، ومن هنا لا يوجد مبرر مقبول ليتعالى بعضهم على بعض، وليست الفروق الثقافية أو الاجتماعية أو المادية مسوغاً للتعالي والتكبر، لأن جوهر الإنسان واحد عند الجميع، وكلما وعى الإنسان هذه الحقيقة، وأدركها جيداً كلما كان تواضعه مع الناس من كل المستويات أكثر وضوحاً، والعكس كلما تغافل الإنسان عن هذه الحقائق ظهرت الفروق، وزادت نبرة التعالي والتكبر والاستعلاء في النظر للآخر، ومن هنا تظهر المقاييس المادية المجحفة في تقييم الناس.

والتواضع هو أعلى مراتب الفضائل، لما فيه من دلائل الشهامة والمروءة، لقول النبي صلى الله عليه وسلّم: (من تواضع

لله رفعه). (البخاري/٧٠٤٣)، والتواضع يتولد من العلم بالله ومعرفة أسمائه وصفاته، وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ثم من معرفة الإنسان بنفسه وتفاصيلها، وعيوب عمله، وهي خليقة من أنبل الخلائق وأسمى الخلال، لكن لا يجوز المبالغة فيها لدرجة مذلة النفس، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلّم: (طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذل نفسه من غير مسكنة). (الجامع الصغير للسيوطي/٤١٢٩).

قد يظن البعض أن التواضع قيمة سلبية، وأنه ناتج عن خلل في الشخصية، وأن فيه تنازل عن الكرامة، بالعكس التواضع احترام آدمية الناس بغض النظر عن أوضاعهم ومكوناتهم الشخصية والاجتماعية، إنه يدل على قوة الشخصية وعلى ثقة الشخص المتواضع بنفسه، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلّم: (إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد). (مسلم/٥٢٤٠)، ومن هنا فإن الاستعلاء والتكبر دليل ضعف في الشخصية، وانعدام للثقة في النفس، وفقدان لقيم الخير في المرء.

التواضع علامة على احترام الذات بعيداً عن الغرور والكِبر، ينتج عنه الحُلم والأناة، ويعرف الإنسان نفسه، ويقدر ربه

ويذل لجلاله، ويذعن للحق، ويلين له، ويُقبل عليه، وبالتواضع يرفق بالخلق، ويلين لهم، فيخفض جناحه، ويدنو بجانبه، ويطمئن من نفسه هاشاً فيهم، وباشاً لهم، ويمنحهم من وده، ويعطيهم من عطفه، ويحيطهم بألفته، ويغمرهم بأنسه. والتواضع كما يكون في النفس الباطنة، يكون في المشي، وفي الحركات، وفي الكلام والقول والحديث، وفي المعاملة خشوعاً وخضوعاً ووقاراً، واتزاناً.

من خلال متابعة مشاهير البشرية من أنبياء ومرسلين ومفكرين وعلماء وأدباء، مما قدموا للإنسانية، وما بذلوا من جهود عظيمة، تاريخهم يشهد أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن التكبر والاستعلاء، بل كانوا نماذج راقية في التواضع يُحتذى بها، ومن ذلك تواضع النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، كانت حياته صورة للتواضع ومن صور تواضعه يوم دخل مكة فاتحاً، حينها أخفض رأسه الشريف تواضعاً لله حتى ليكاد شعر لحيته يمس واسطة راحلته، ومنه ملاعبته وملاطفته للأطفال، ومنه عمله في رعي الغنم والإبل وهو من أشرف قبائل العرب حسباً ونسباً.

في المقابل هناك من يعزلون أنفسهم عن الناس، يعيشون في قصور وهمية فارهة، يظنون في أنفسهم التميز عن البشر، ينظرون لغيرهم نظرة استعلاء وتكبر، مبنية على أسس من الغرور

والغطرسة، نتاج سلطة ما، أو ثروة من المال، أو بعض جاه، إنهم ما عرفوا حقيقة أنفسهم، ولا جوهر ذواتهم، حياتهم القشور والمظاهر، حياتهم قائمة على حب الظهور والاستعلاء، لا يتذكر أحد أنهم قدموا شيئاً مفيداً للبشرية، أو لمجتمعاتهم، هؤلاء ليس لهم قيمة في نفوس الناس، ولن يتذكرهم التاريخ بشيء، يعيشون على هامش الحياة، ليس لهم قيمة حقيقية في الوجود، هؤلاء أياً كان قدرهم ومقامهم يعيشون صغاراً ويموتون صغاراً.

إن المتواضع إنسان يُقدر نفسه حق قدرها، فلا يُعطي لنفسه حجماً أكبر مما يستحق، وبالتالي يحرص على أن يستزيد من الفضائل، فإن كان متعلماً طلب الزيادة في العلم، وإن كان مهنياً أو طبيباً أو مهندساً، زاد من بحثه عن الجديد في مهنته وتخصصه، وهكذا كلما تخلق بفضيلة زادت عنده الرغبة للتخلق بفضيلة أخرى. أما المتكبر الذي تلبس بالغرور، فيظن في نفسه أنه بلغ ما لم يبلغه غيره، صانعاً لنفسه هالة من العظمة الكاذبة تمنعه من أن يستزيد من العلم والمعرفة اللازمة لتطوير الذات، ومن هنا يزداد جهلاً على جهل، ويُسرع في طريق السقوط.

التواضع هو سرّ نجاح كل ناجح، وتفوق كل متفوق، وقد مدحهم الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}، ونادراً ما

نجد شخصاً كريم المنبت، يتكبر على خلق الله، ويتعامل معهم بعنجهية وغرور، فالمتكبر والمتغطرس هو شخص حقير النفس، وضيع المكانة، مهما بلغ به المنصب والمال والشهرة، وقد وصف القرآن أمثال هؤلاء بقوله تعالى: " **عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ**" **(القلم:١٣).**

إن علو النفس يصاحبه علو في الهمة والغاية، تدفع الإنسان لمزيد من التواضع، وقد امتدح القرآن الكريم الرهبان والقساوسة من النصارى لتواضعهم: " **ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**" **(المائدة:٨٢)** ، وكذلك كان وما زال حال الكثيرين من علماء الأمة، اشتهروا بالتواضع والبساطة فرفع الله أقدارهم في العالمين.

ونحن في فلسطين بحاجة ماسة لخلق التواضع، وخصوصاً أصحاب المناصب العالية، الذين ما أسرع أن تتغير أخلاقهم وطباعهم لحظة توليهم لمناصبهم، فيتنكرون لمعارفهم وأصدقائهم، ويتعالون على أهليهم ورفاقهم، نحن بحاجة إلى أن يتواضع أغنياؤنا، فيخفضوا أجنحتهم لفقرائنا، بحاجة إلى أن يتواضع الأطباء فيرحمون مرضانا من المصروفات المبالغ فيها، نحتاج إلى أن نتواضع كلنا مع كلنا، حتى تشملنا رحمة الله.

قيمة الحياء

الحياء ومعناه: انحصار النفس خوف إتيان القبائح، والحذر من الذم والسب، وقيل هو الانقباض والامتناع والخجل والاحتشام، وقيل هو انقباض النفس عن القبائح وتركه، وهو من القيم النبيلة في حياة الناس أفراداً وجماعات.

وأهميته أنه يمنع الإنسان من فعل أي شيء لا يتفق مع الأخلاق الكريمة والسلوك الحميد. والحياء والضمير متلازمان، ومكانته في الإسلام عظيمة، فهو عنصر أساسي من عناصر الإيمان، فلا إيمان بلا حياء، بل هو من أجمع شُعب الإيمان الدال على الخير، وعلاقته بمعرفة الإنسان بعلم الله واطلاعه على أفعاله وأقواله وما يُسَرّ وما يُعلن يُكسبه خلق الحياء، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلّم: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان). (مسلم/٣٥).

والحياء غير الخجل، لأن الخجل قد يكون سلبياً في لحظة ما، أما الحياء فإنه إيجابي دائماً، قال رسول الله صلى الله عليه

وسلّم: (الحياء لا يأتي إلا بخير)، وقال عليه الصلاة والسلام: (الحياء خير كله). (البخازي/٦١١٧)، والحياء ليس مانعاً لفعل ما يُعيب فقط، بل هو مانع ودافع في نفس الوقت، مانع من فعل الرذائل، ودافع لفعل الفضائل، ولأن الإيمان لا ينفصل عن العمل، والحياء شعبة من الإيمان، فإن الحياء لا ينفصل عن العمل.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "الحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان، فهو يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه، وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل ما لا ينبغي، أو ترى حُمرة الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق، فاعلم أنه حي الضمير، نقي المعدن، زكي العنصر. وإذا رأيت الشخص صفيقاً بليد الشعور، لا يبالي ما يأخذ أو يترك، فهو امرؤ لا خير فيه، وليس له من الحياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا"، قال رسول الله: (إن لكل دين خُلقاً، وخلق الإسلام الحياء). (ابن ماجه/٣٣٩٠).

والحياة لها وجه واحد، إما الحياء، وإما النفاق، وكلاهما لا يجتمعان في قلب واحد، والدين لا يقبل إطلاقاً أن تكون في ظاهرك أمام الناس شيء، وبعيداً عن عيونهم شيء آخر، فهذا ليس من الكرامة ولا من المروءة، ولا من الأخلاق الحسنة،

فالإنسان العاقل والمؤمن ينبغي أن يستحي من الله، ثم من نفسه، كما عليه أن يستحي من غيره، ومن هنا قيل إن المروءة ألا تفعل سراً أمراً وأنت تستحي أن تفعله جهراً، لهذا كان الحياء سياج خُلقي يمنع صاحبه من فعل أي أمر لا يتفق مع القيم الأخلاقية والدينية، وفي نفس الوقت يُعِد الحياء صاحبه للالتزام بما يمليه عليه ضميره.

وفي الجانب الآخر، إذا فُقد الحياء، فصاحبه مهيئ لفعل أي شيء يتناقض مع القيم الأخلاقية والدينية بلا حرج، يقول النبي صلى الله عليه وسلّم: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت). (البخاري/٥٧٩١)، والإنسان فيما يفعل إيجاباً أو سلباً، لا تقف نتائج أفعاله عنده فقط، بل تتعداه لغيره من أفراد المجتمع، ومن هنا فإن الحياء فضيلة اجتماعية تتعدى صاحبها وتشمل المجتمع كله، والعكس كذلك، فنقيض الحياء من صفاقة وفحش يتجاوز الفرد إلى المجتمع، فيكتوي بناره.

والحياء من القيم التي عرفتها كل الشعوب، خلال مسيرة الإنسانية الطويلة، ولهذا فهي فضيلة فطرية، أكد عليها الإسلام، كما أكدت عليها بقية الأديان، وهي فضيلة لا تتأثر بالزمان ولا المكان، ربما تتناقص في بيئة عن بيئة أخرى، ومن مجتمع إلى

مجتمع، لكن لا تنعدم بالمطلق، وبلا شك فإن القيم في المجتمعات المعاصرة قد طرأ عليها تغييراً كبيراً، حتى أننا نكاد نفتقد بعضاً من هذه القيم، كقيمة الحياء، وتحت مسميات كثيرة كالحرية وحقوق الإنسان، أصبح المرء يفعل الكثير من الأمور التي كان الحياء سابقاً مانعاً لفعلها، وكل يوم تقريباً نسمع عن شيء جديد، مما له علاقة بالجنس، وأمور الأسرة. فهل أصبح الحياء موضة قديمة، لا تتمشى مع الحياة العصرية، بلا شك هناك خلل كبير أصاب فكر الإنسان وروحه وثقافته.

لكن يبقى أمام الإنسان الذي كرّمه الله سبحانه، أن يُميز بين الغث والثمين، وأن يُحافظ رغم كل المتغيرات على كرامته، وعلى إنسانيته، وهذا لا يتحقق إلا بتمسكه بمنظومة القيم الأخلاقية، وعلى رأسها قيمة الحياء، والتي هي الحصن الأخير قبل سقوطه في هاوية الضياع والانهيار والتلاشي.

إن ضياع قيمة وخلق وفضيلة الحياء، ضياع للإيمان، وبالتالي ضياع للحياة الكريمة والطاهرة والنظيفة، وما انهارت وتلاشت حضارة على مدار تاريخ البشرية إلا وكان لغياب الحياء دوراً بارزاً فيه، وحضارة اليونان والرومان خير شاهد على ذلك. فإن الإنسان إذا سُلب منه الحياء فقد المانع عن مخالطة القبائح

والمعاصي، وعُدم الزاجر عن الوقوع في المحظورات، وارتكب كل ما تُسول له نفسه ما يقوده إليه هواه وشيطانه.

والحياء ذا صلة بالضمير، سلباً وايجاباً فكلمنا كان الضمير حياً في النفس، كان انعكاسه على مستوى الحياء أكثر وضوحاً، والعكس كذلك.

والحياء متنوع متعدد، منه الحياء عن الكلام الفاحش والمعيب، وأن يخجل من ذكر العورات، متجنباً الألفاظ البذيئة والسوقية، وأن يقتصد في حديثه، قال رسول الله: (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار). (الترمذي/٢٠٠٩).

ومن الحياء ألا يُؤثر عن المرء سوء ومذمة، وأن يحرص على جعل سمعته نقية من الشوائب، بعيدة عن الشائعات، ومن الحياء أن يعرف للأشخاص من ذوي الحقوق أقدارها ويحفظ لهم مكانتهم.

ونحن في فلسطين ما أحوجنا لهذه القيم الجميلة، والفضائل الراقية، وللأسف بدأنا نشاهد انحساراً لخلق الحياء في تعاملات الناس، أفراداً وجماعات، ما نشاهده من تبرج بعض

النساء، ما نشاهده من أفعال وحركات في أفراحنا، ما نشاهده في أسواقنا من اختلاط واحتكاك ومزاحمة ما بين الرجال والنساء، ما نشاهده في مهرجاناتنا ومؤتمراتنا وندواتنا من اختلاط وخلوة، ما نشاهده من تميع وتسكع طالباتنا في الطرقات جيئة وذهاباً، ما نراه في علاقات أبناء العمومة من الذكور والإناث في عائلاتنا، كل هذا وغيره مؤشر خطير، علينا مراجعة ما نحن فيه، حتى لا نفيق على دقات طبول الهاوية.

قيمة الحرية

الحرية، ويُقصد بها الخلاص من القيود، والانعتاق من الأسر، وعرّفها المفكرون المسلمون بـ "القدرة على تحقيق فعل أو الامتناع عن تحقيقه دون الخضوع لأي ضغط خارجي"، والحرية من الأسس الضرورية في أي نظام أخلاقي، لأن هذه الحرية هي أساس المسؤولية، وهي ضرورية لازمة من أجل إثبات الأخلاق، إذ أننا قد نصف فعلاً ما على أنه خير أو شرّ، فضيلة أو رذيلة إذا فعله الإنسان بحريته وإرادته واختياره.

وهي حق من الحقوق التي لا يجوز المساس بها، أو مصادرتها دون وجه حق. ونقيض الحرية هو العبودية، وليس من حق أحد أن يستعبد الناس، ويسلبهم حقهم المشروع في الحرية، وفي اختيار ما يرغبون دون ضغط أو إكراه، مصداقاً لقول عمر بن الخطاب: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".

ولأن الإنسان لا يعيش وحده، إنما في إطار مجتمع فإن حريته منضبطة بقيم وقوانين هذا المجتمع، ومن هنا فإن الحرية

حق غير مطلق، ولأن كل إنسان له حق الحرية، وبالتالي تتصادم الحريات، فكان لزاماً أن تقف حريتك حينما تبدأ حرية الآخرين، ولأن أبناء الوطن سواء فلا يجوز أن يتعدى البعض بحرياتهم على غيرهم، وهذا يعني أنه لا يوجد في الحياة حرية مطلقة، وإنما الحرية منظمة بالقوانين والقيم الدينية والاجتماعية والأخلاقية، يحميها المجتمع والدولة.

ومن هنا جاءت القاعدة الشرعية "لا ضرر ولا ضِرار"، والتي من خلالها تحكم علاقات المجتمع، فما دمت أعيش في مجتمع فأنا ملزم أمام الشريعة والقانون بعدم الضرر بالآخرين، وعلى الدولة أن تقف في وجه كل من يشكل ضرراً على المجتمع، مادياً أو معنوياً. والدين يحرص كل الحرص على حق الغير، ويُحيطه بالحفظ والحماية، لهذا جاء حديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه). (سبق تخريجه)، وليس بعد ذلك من صيانة لحرية الآخرين.

ومما استقر عليه حال المسلمين كفالة الحرية بصورها المتعددة، والمتنوعة فكرية وشخصية ودينية وسياسية، وقد مارسها المسلمون في حياتهم، حكومات وأفراداً، وقد جرت أحكام الحرية على المسلمين وعلى غير المسلمين، في كل جوانب الحياة دون

استثناء، لدرجة أن المنصفين من المؤرخين الأجانب يشهدون أن غير المسلمين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية بحرية أكثر من حياتهم تحت الأنظمة الخاصة بهم.

مع كل ما سبق ذكره نجد البعض يسئ استعمال حقه في الحرية، بحيث يضر بغيره، فهذا يُعلي من صوت المذياع، والآخر يُجبر غيره أن يستمعوا لما يُحب أن يستمع هو له، وآخر يجلس في شرفة منزله عاري الصدر في مواجهة شرفات الجيران، وأحدهم يقوم بتربية الدواجن على سطح العمارة التي يسكنها دون مراعاة لشعور البقية ممن يسكنون معه، وآخر يوقف سيارته أمام مدخل العمارة التي يقطن فيها، مغلقاً الطريق أمام المارة، صور كثيرة سلبية في الاستعمال السلبي للحرية، نابعة من الجهل وعدم احترام حقوق الآخرين، وضعف الوازع الديني والأخلاقي.

عكس ما سبق نجد مجتمعات العالم المتقدم علمياً والمتطور مادياً، نجد عندهم عدم ازعاج بعضهم بعضاً، وحرص كل واحد منهم على عدم الاعتداء على الآخر، لذلك نجد الهدوء يخيم على أماكن السكن والشوارع والعيادات الصحية والجامعات، وبالطبع مردود ذلك كله على الفرد والمجتمع واضح في مدى

اخلاصهم في العمل وقدرتهم على العطاء، فتتقدم مجتمعاتهم وترتقي.

ونحن أصحاب الحضارة العريقة، حضارة القيم والأخلاق، والسلوك الراقي، نحن الأجدر أن يكون سلوكنا أكثر رقياً وحضارة، ولا يصح مقابل ما لدينا من موروث حضاري شامخ أن يتقدم علينا غيرنا في هذه القضايا، لكن الواقع المعاش يقول غير ذلك، فما تعانيه مجتمعاتنا من تلوث سمعي وبصري ومائي وهوائي، مضافاً إليه تلوث أخلاقي في لغة الناس وحركاتهم وهيئاتهم، حتى أصبح هذا التلوث وكأنه هو الأصل والقاعدة في حياتنا، والسلوك المنضبط هو الشاذ والغريب، والإنسان أصبح لا يملك أمام هذه الفوضى إلا الصمت لعموم البلوى، كل ذلك تحت شعار الحرية، و(ما حدش له عندي حاجه)، و (أنا حر أفعل ما أريد).

إن الحرية قيمة إنسانية راقية وسامية، وهي دليل على كرامة الإنسان. لهذا وجب على الآباء في البيت، والمعلمين في المدرسة، والشيخ والراهب في المسجد والكنيسة، والمحاضر في جامعته، على هؤلاء وغيرهم أن يُرسخوا القيم الأخلاقية لأولادنا حتى ينشؤوا عليها، وتترسخ في عقولهم وسلوكهم، إننا في أشد الحاجة إلى العودة لقيمنا وعاداتنا وتقاليدنا الأصيلة والجميلة، التي

بها ومن خلالها نستطيع أن نقيم مجتمعاً متماسكاً وقوياً، تقوم أواصر العلاقة فيه بين أفراده على التعاون والتآلف، من أجل خير الأفراد والجماعة، ورقي الوطن والبلاد.

الحرية ليست ترفاً فكرياً أو تفلتاً أخلاقياً، إنما هي مسؤولية، كلما كنت حراً كلما كانت قدرتك على العطاء أكثر، والابداع أعظم، كلما كنت مواطناً أكثر انتماءً، وأكثر إيجابية، أكثر احتراماً واستيعاباً للآخرين، وتقبلاً لأفكارهم ومعتقداتهم، كلما كنت حراً كانت ثقتك بنفسك أكبر، واحتراماً لذاتك أعمق، كلما كنت حراً رأيت الحياة أجمل، فتعاونت مع غيرك ليبقى هذا الجمال.

ونحن كشعب فلسطيني محتل ومحاصر، نحتاج أن نتحرر من سطوة الاحتلال، الذي يُعيق كل خطوة نخطوها للأمام، والذي يقتل فينا الأمل، الحرية بالنسبة لنا طوق النجاة، وبالتالي علينا ألا نستسلم، وأن نبذل كل ما في الوسع لنحقق هذه الحرية، علينا أن نتحرر من أسر الماضي المعيق للتطور والنهضة، علينا أن نتحرر من الأفكار البالية التي ما عادت تتناسب مع روح العصر، لكن هذه الحرية تحتاج إلى سواعد قوية، وإرادة وعزيمة أقوى، وإخلاص في النية والعمل، تحتاج إلى ثقافة تقبل الآخر استيعابه،

تحتاج إلى ثقافة أن هذه الأرض تسع للمليارات من البشر غيرك، تحتاج إلى التعاون والمشاركة الصادقة من الجميع، من المواطن والدولة والتنظيم والحزب، تحتاج إلى صدق العلماء والمفكرين.

قيمة التعاون

التعاون، وهو بمعنى التضامن والتعاضد، وإعانة الناس على قضاء حوائجهم، وذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده في غنىً عن الناس بحال من الأحوال، وما دام الإنسان محتاجاً إلى غيره من الناس بالضرورة فهم كذلك محتاجون إليه، ولا يتم تبادل الاستجابة لتغطية هذه الحاجات إلا بالتعاون. والتعاون الحق لا يُسمى تعاوناً إلا إذا كان في الخير وعلى البر والتقوى، " **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**" **(المائدة:٢)** ، وإلا كان تآمراً.

قال الماوردي: "اعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مسعِدة، ولا عن كافة ذويها معرضة، لأن إعراضها عن جميعهم عطب، وإسعادها لكافتهم فساد، لائتلافهم بالاختلاف والتباين، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون، فإذا تساوى حينئذ جميعهم، لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً، وأما إذ تباينوا واختلفوا صاروا

مؤتلفين بالمعونة، متواصلين بالحاجة، لأن ذا الحاجة وَصول والمحتاج إليه موصول".

وفي الأمثال الشعبية نقول: "إيد لوحدها ما تسقفش"، فالتعاون ضرورة بين الناس حتى يستطيعوا تحقيق ما يصبوا إليه من أهداف، ومواجهة متطلبات الحياة من طعام وشراب ومسكن، وجهاد ومقاومة، ومن تحقيق الغايات العليا من رفاهية وكفاية، وصناعة وتقدم ورقي وحضارة، والفرد لوحده مهما بلغ من العلم والقوة لا يقدر على ذلك وحده، فلو لم يتعاون الناس فيما بينهم في أمور حياتهم لما استطاعوا أن يأكلوا أو يشربوا أو يلبسوا أو يسكنوا أو يتمتعوا بأي نعمة في هذه الحياة. فالطعام الذي نأكله وصل إلينا نتيجة جهد كبير بذله أناس من قبلنا، وتعاونت على تجهيزه وإعداده أيد كثيرة، الفلاح الذي زرع، والصانع الذي صنع، والطاهي الذي طهى، ومن يد إلى أخرى حتى وصل إلينا خبزاً شهياً، وطعاماً لذيذاً، وهكذا في كل شيء.

والتعاون ضروري لدفع عجلة المجتمع للأمام، ولولا هذا التعاون لأصيبت الحياة بالشلل وتوقفت حركة التنمية والعمل والتقدم، وقد دعت كل الأديان والنظم والفلسفات إلى التعاون، واهتم ديننا الإسلامي به أيما اهتمام، فما قامت لأمة من الأمم

قائمة، ولا نهضت لها نهضة، ولا شيّدت حضارة، ولا حققت إنجازاً يُذكر إلا بالتعاون فيما بين مكونات هذا المجتمع، من السلطة الحاكمة حتى المواطن، ومن المفكر والمبدع إلى العامل والمنتج، ومن الصانع إلى المزارع، أفراداً وجماعات.

وعلى الرغم من كل ما سبق من حديث عن التعاون وأهميته، وحض الإسلام عليه، إلا أننا نلمس تراجعاً واضحاً في تطبيقه على أرض الواقع، وفي حياتنا العملية، والسبب في ذلك يعود لما يسيطر على الكثير من الناس من أنانية وحب الذات، ونقص الدافع الجمعي في عقل وسلوك الأفراد، لهذا يتراجع فينا دافع العمل بروح الجماعة، وعقلية الفريق، الكل ينزوي بنفسه ويحب أن يُنسب النجاح له وحده، ويعمل على إرغام الآخرين ليعملوا حسب رؤيته وتفكيره، وقد تتعدى الأنانية بصاحبها إلى وضع العقبات والعراقيل في طريق الآخرين حتى يُظهرهم بصورة العاجزين والفاشلين، ليحصد هو وحده ثمار النجاح، وهذه سياسة بعض المسؤولين والقيادات الفاشلة.

إن مجالات التعاون متعددة ومتنوعة، تشمل كل نواحي الحياة، الإنتاجية والخدماتية، والفكرية والثقافية، حتى مجالات الدعوة الدينية، والتوعية الجماهيرية، فمن ذلك تعاون المعلم

والإدارة والطالب في المدرسة لنجاح العملية التعليمية، وتعاون العامل مع المشرف مع صاحب العمل لنجاح العمل وتقدمه وتطوره، وتعاون المواطن مع السلطة في تحقيق الأمن والاستقرار، وكثير من المجتمعات تعتمد على العمل التعاوني والتطوعي في إنجاز كثير من المشروعات العمرانية، والزراعية، والصناعية، ودولة الكيان الصهيوني أول ما قامت، قامت على المشاريع التعاونية (الكيبوتسات، أي المشاريع الزراعية التعاونية)، وهكذا في باقي مناحي الحياة. إن التعاون يُضفي صورة حضارية على المجتمع، ويُعطيه زخماً مادياً ومعنوياً لمزيد من التطور والرقي والنجاح.

والتعاون من أكثر القيم والأخلاق نشراً لروح المحبة والألفة بين أفراد المجتمع، ونزعاً للأخلاق السلبية من حقد وحسد وغل وكراهية، فالفقير والمحتاج لما يرى ويلمس من الغني تعاوناً، ومداً لليد وتقديماً للعون تُنزع من قلبه الأحقاد والحسد والغل والكراهية، ويغرس بدل منها المحبة والألفة، كذلك المواطن البسيط لما يرى من الحاكم والمسؤول التعاون في حل مشكلاته الحياتية، والعمل على إنصافه، يزداد تفانياً واخلاصاً لمجتمعه، وسلطته، وهكذا

المعلم مع إدارة التعليم والمدرسة، والطالب مع المعلم، والمواطن مع رجل الأمن.

وكما يتعاون الأفراد في المجتمع الواحد، كذلك تتعاون الدول فيما بينها، في كل ما ينفع البشرية، في مجال العلم، هناك دول متقدمة ودول نامية، دول غنية ودول فقيرة، دول ذات كثافة سكانية بلا ثروات، ودول ذات ثروات بلا كثافة سكانية، التعاون بين هذه الدول يخفف من المعاناة والمشاكل التي تهدد البشرية، التعاون يقضي على الأمراض التي تهدد الإنسان، والدول الغنية والمتقدمة بتعاونها مع الدول الفقيرة والنامية تعمل على زيادة تقدمها وغناها، وكلما تراجع تعاون الدول فيما بينها كلما زادت فرص الحروب والتطرف والإرهاب وانتشار الأمراض الفتاكة والمستعصية، وبالتالي فقد العالم الشعور بالأمن والاستقرار. ومشكلة فلسطين خير شاهد على ذلك، يوم تراجع وتجاهل العالم عن حل هذه المشكلة، وخذل الفلسطينيين في نيل حقهم في أرضهم، ونيل استقلالهم وإقامة دولة لهم، قامت الحروب المتوالية، وقتل آلاف الأبرياء، ودمرت قرى ومدن، وتهدد الأمن والسلام، وفقد الإنسان الفلسطيني ثقته في كثير من المنظمات والمؤسسات الأممية، وفقد مصداقية كثير من الشعارات والمواثيق، وانعكس كل

ذلك على فكره وسلوكه، وعاش العالم وما زال حالة من الاضطراب والقلق ووخز الضمير.

ونحن أهل فلسطين أكثر الناس حاجة للتعاون فيما بيننا، أفراداً وجماعات، الغني يمد يده للفقير، يخفف عنه حاجته وفقره، والقوي يمد يده للضعيف ينصره حتى ينال حقه، كل ذلك حتى ننهض بأنفسنا ومجتمعنا، وحتى نخفف من المعاناة التي نواجهها، وحتى نستطيع الصمود في وجه التحديات والصعاب، من احتلال وحصار وفقر، وحروب ومظالم. علينا أن نتعاون مع شعوب العالم الحر والذي يُناصرنا ويُؤيدنا في نيل حقوقنا، ليُظهروا للعالم مدى الظلم الواقع علينا كشعب فلسطيني. على السلطة الفلسطينية أن تظهر سياسة التعاون مع الشعب، وتعمل على التخفيف من معاناتهم اليومية، وأن تقدم لهم أقصى ما تستطيع من التسهيلات، لكن ما نراه عكس ذلك تماماً، ما نراه فرض ضرائب، ورفع للأسعار، وفرض رسوم مبالغ فيها على كل معاملة تُقدم للمواطن، والتعمد في فرض الغرامات والعقوبات تحت أي شبهة. لن ينصلح حال الوطن والمواطن إلا بالتعاون الصادق، والمثمر والبناء.

قيمة الأمانة

الأمانة، وهي ضد الخيانة، وتطلق على كل ما عهد به إلى الناس من التكاليف الشرعية، كالعبادة والوديعة، ومن معانيها حرية الاختيار والاستعداد لتحمل المسؤولية. وعرّفها الشيخ محمد الغزالي بأنها: "شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسؤول عنه أمام ربه"، ومن معانيها، وضع كل شيء في المكان الجدير به، واللائق له، فلا يُسند منصب إلا لصاحبه الحقيق به، ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذي ترفعه كفايته إليها، ومن هنا جاء تسمية المناصب العليا بالأمانات.

ومن الأمانة أن نصطفي للأعمال أحسن الناس قياماً بها، فإذا مِلنا عنه إلى غيرهِ لهوىً أو شهوة أو قرابة فقد ارتكبنا بتنحية القادر وتولية العاجز خيانة فادحة. والأمة التي لا أمانة فيها، هي الأمة التي تبعث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء، لتهملهم وتقدم من دونهم، وهذا يُعتبر من مظاهر الفساد.

وتعتبر قيمة الأمانة من القيم الهامة والفضائل الرئيسية في حياة الأفراد والجماعات، وهي من القيم التي لا تتجزأ، ولا تقبل أنصاف الحلول، فهي إما أمانة وإما خيانة، وهي لا تتعلق بدين أو جنس أو لون، كما أنها علامة من علامات الإيمان، لقول النبي صلى الله عليه وسلّم: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له). (أحمد/١٢٥٦٧)، والإيمان والأمانة صنوان لا يفترقان، لأنه من علامات النفاق خيانة الأمانة، (إذا اؤتمن خان). (البخاري/٣٣)، ومما اتصف به النبي قبل الإسلام بالصادق الأمين.

وللأمانة صور كثيرة ومتنوعة، منها ما له علاقة بالأمور المادية، ومنها ما له علاقة بالدين والسلوك ومكارم الأخلاق. وأعظم الأمانات هي الأمانة العظمى، التي اختارها الإنسان لنفسه، والتي تعني مسؤوليته عن الوفاء بالتكليف الرباني المنوط به في هذه الحياة، القيام بالخلافة على الأرض، وعبادة الله وعدم الإشراك به أحداً غيره، ومن الأمانة، أمانة الأموال والأعراض، والأمانة على العلم، والأمانة على تأدية شعائر الدين وأخلاقه، والأمانة على الأسرة والصحة والبيئة والمجتمع وقيمه وتقاليده

وعاداته الحسنة، والأمانة على الوطن وحمايته من الأخطار التي تهدده.

من الأمانة أن يحرص الإنسان على أداء واجبه كاملاً في العمل الذي يُناط به، وأن يستنفذ جهده في إبلاغه تمام الإحسان. ومن الأمانة ألا يستغل المرء منصبه الذي عُيّن فيه لجرّ منفعة إلى شخصه، أو قرابته أو حزبه وتنظيمه.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "من معاني الأمانة أن تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك، وإلى المواهب التي خصك الله بها، وإلى ما حُبيت من أموال وأولاد فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك، فيجب أن تسخرها في قرباته، وأن تستخدمها في مرضاته". ومن معانيها أن تحفظ حقوق المجالس، فلا تترك لسانك يُفشي أسرارها وينشر أخبارها، وأشدها خطورة وفساداً أحاديث العلاقات الزوجية وما يدور فيها.

ومن الأمانة حفظ أسرار العمل، بكل أنواعه، الطبيب وأسرار مرضاه، والمحامي وأسرار موكليه، والقاضي وأسرار المتخاصمين عنده، والتاجر وأسرار زبائنه، والزوجة وأمانة حفظ أسرار زوجها، وكل من تولى أمانة في أي مجال من مجالات الحياة.

هذه الأمانات التي أنيطت بنا في الدنيا سيسألنا عنها الله يوم القيامة، (لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به). (صحيح الترمذي/٢٤١٧)، أيضاً سنُسأل عن أمانة العقل والسمع والبصر، وهي أمانات وهبها الله للإنسان: " **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**" **(الإسراء:٣٦)**.

والأمانة في حياة الإنسان لها أبعاد متعددة، أولها أمانة شخصية تتعلق بالفرد نفسه، وثانيها أمانة اجتماعية تتعلق بصلته بمجتمعه، بغض النظر عن الجنس واللون والدين واللغة، وثالثة تتعلق بعلاقته بربه، عقيدة وشريعة وأخلاق، ورابعة تتعلق بعلاقة الإنسان بالكون الذي يعيش فيه، وما فيه من مخلوقات ومزروعات، وكل هذه الأمانات تتكامل فيما بينها، بلا تعارض أو تناقض.

والإسلام يعتبر الأمانة قيمة مركزية وفضيلة محورية، لدرجة أن قيام الساعة مرهون بها وبمدى الالتزام بالوفاء بها، لحديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (إذا ضُيعت الأمانة فانتظر

الساعة). (البخاري/٦١٣١)، وهذا دليل على قيمتها وأهميتها في الحياة، وأهمية القيام والوفاء بها، فهي جوهر الدين ولب الأخلاق، وضياعها ضياع للحياة، فلا قيمة للحياة بدون الأمانة، والحفاظ عليها يعني الحفاظ على القيم النبيلة والفضائل الكريمة، في نفس اللحظة يعني الحفاظ على استمرارية الحياة واستقامة السلوك، ونشر قيم الحق والخير في كل مكان.

هناك علاقة قوية بين الأمانة وتحمل المسؤولية، فيوم أن حمل الإنسان الأمانة أصبح مسؤولاً مسؤولية كاملة عن تبعات هذه الأمانة: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته). (سبق تخريجه)، وهكذا الحاكم الذي تولى حكم شعبه مسؤول عن كل شئون حياتهم من توفير الأمن، وكفالة حاجياتهم، وهكذا الموظف والمعلم والجندي والعامل يوم تحملوا أمانة أعمالهم أصبحوا مسؤولين شرعاً وقانوناً عن هذه الأعمال، ايجاباً أو سلباً.

إن الأمانة على أي معنىً كانت، مادية أو معنوية، ذات قيمة كبيرة في نشر روح الثقة والاحترام والمحبة بين الناس، وما نال محمد صلى الله عليه وسلّم قبل الإسلام محبة الناس واحترامهم وثقتهم إلا بشهرته بالصدق والأمانة، وهكذا المجتمع

الذي تشيع بين أفراده هذه القيمة وهذه الفضيلة، وهذا الخلق إلا كان نموذجاً للتآلف والمحبة.

نحن الشعب الفلسطيني ما أحوجنا لمثل هذه القيم والفضائل، من خلالها تزداد عرى المحبة والترابط بين أفراد المجتمع، وبالتالي نكون مؤهلين لمواجهة عدونا. إنّ تحمل كل فرد فينا لأمانته على مستواه الشخصي، أو الأسري، أو المجتمعي، على مستوى العمل والوظيفة والإدارة، على مستوى البيع والشراء، على مستوى الزراعة والصناعة، كل ذلك يشكل بشرى خير ومظهراً طيباً وجميلاً.

قيمة الوفاء

الوفاء هو قيام الشخص بتنفيذ ما وعد به، وعدم الإخلال بما وعد أو عاهد عليه، ونقيضه الخيانة، وهي من القيم المهمة والتي لها أثرها الواضح، ودورها العظيم في حياة الناس أفراداً وجماعات، شعوباً وأمماً، والوفاء بالعهد أساس الكرامة الإنسانية في الحياة الدنيا، وسعادته في الآخرة: " **وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (البقرة:٤٠)** ، وليس صحيحاً ما ذكرته العرب من أن الوفاء من المستحيلات وإلا ما كان الإسلام طالب به كخلق وسلوك حسن " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (الأنفال:٢٧)** ، صحيح أن هناك خلل كبير عند الناس في أمر الوفاء، لكن ذلك لا يُعمم حتى يصبح قاعدة تعم الجميع.

وقيمة الوفاء قيمة عامة شاملة، ورد ذكرها في القرآن متعلقة بكثير من الأمور، فمرة يأتي ذكرها بالإطلاق، ومرة بالوفاء بعهد الله، ومرة بالوفاء بالعقود، ومرة بالوفاء بالكيل والميزان، ومرة بالوفاء بالنذر، وهذا كله من شمول واتساع مساحة الوفاء وعلاقته

بالمسؤولية، ففي غيبة الوفاء ليس ثمة وجود لأي نوع من المسؤولية، سواء كانت مسؤولية دينية أو اجتماعية أو أخلاقية، وهي لا تشمل العلاقة بين الأفراد فقط، بل تتعداهم للعلاقة بين الشعوب.

وأعظم أنواع الوفاء بالعهد، الوفاء بعهد الله: " **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**" **(يس:٦٠)**. ومنها الوفاء بالعهد مع النبي محمد صلى الله عليه وسلّم باتباع تعاليمه والاهتداء بسنته. ومنه عدم التنكر للماضي وما فيه من حقوق للآباء والأجداد، والسلف من الأخيار والصالحين والعلماء، والانتفاع به للحاضر والمستقبل، ولنشكر الله على ما أنعم به علينا. ومن الوفاء احترام العقود بين الناس، والوفاء بها سواء كانت لمؤمن أو كافر. إن عدم الوفاء بما سبق أو بعضه سبب في نزول العذاب: {وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين}، ومن هنا ليس من الكرامة تجاهل الوفاء أو تجاوزه أو الالتفاف حوله بما يُناقض الالتزام به.

كما ذكرت سابقاً إن من أجمل الوفاء، الوفاء لماضي الأمة وتراثها وتاريخها، فالذي لا ماض له لا حاضر ولا مستقبل له، وعلاقتنا بهذا الماضي هي علاقة التواصل بين حلقات الزمن،

لا علاقة التقديس والتعظيم على علاته، فنحن نتعامل مع الماضي مع اعترافنا بما فيه من أخطاء وتجاوزات، فالماضي بالنسبة لنا هو جذورنا التي لا يمكننا التنكر والتنصل منها، فكما لا يمكن فصل جذور الشجرة عن ساقها وإلا ماتت، كذلك لا خير من فصلنا عن ماضينا. إن الماضي يمثل الهوية الثقافية للأمة، والسد الواقي والمانع لضياعها وتحللها في غيرها، كل ذلك مع الأخذ في الاعتبار متغيرات الزمن الحاضر في جانبيه المادي والروحاني، وهو ما نسميه بالتوافق بين الأصالة والمعاصرة.

ويدخل في هذا الوفاء، الوفاء لعلماء الأمة ومفكريها ممن قدموا لمجتمعاتهم وأوطانهم خدمات عظيمة، ومن صور الوفاء لهم إحياء تراثهم والاعتراف بفضلهم وتعريف الأجيال المعاصرة بهم وبجهودهم وعطائهم، وتقديمهم كنماذج مشرفة يقتدي بهم شباب الأمة.

وقيمة الوفاء في التصور الإسلامي لها ارتباط قوي بالصدق والتقوى، فقد جاء السياق القرآني: " **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة:١٧٧)** ، فالوفاء بالعهود والحقوق والمواثيق أمر يُحتمه الإسلام ولا يُفرّق في الالتزام به بين

المسلم وغير المسلم، ولا علاقة له بجنس أو لون أو لغة، لأن القيم الأخلاقية لا تتجزأ وهي غير انتقائية. وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه). (البخاري/٢١٤١)، وقد كانت حياة النبي قبل الإسلام وبعده نموذجاً راقياً للوفاء بالعهد، في سلمه وحربه، في علاقاته مع زوجاته وأصحابه، في علاقاته بالمسلمين وغير المسلمين.

والوفاء كقيمة علاقته تبادلية، فمن كان وفياً لك يجب أن تكون وفياً له، وكما تتوقع أن أكون وفياً لك يجب أن تكون وفياً لي، فليس من العقل والمنطق أن تطلب من الآخرين أن يكونوا أوفياء لك وفي نفس اللحظة تتنصل أنت من الوفاء لهم.

والقيمة السلبية المقابلة للوفاء هي الغدر والجحود ونكران الجميل، ونقض العهود، وهذه من علامات النفاق، بل قد يصل الأمر إلى انتفاء صفة الدين عمن لا يفي بالعهد، (لا دين لمن لا عهد له). (سبق تخريجه)، فهذه القيم السلبية من أخطر عوامل تدمير العلاقات بين الناس أفراداً وجماعات.

وإذا كان الإسلام حريصاً على الوفاء بين الله والعباد، فهو حريص على الوفاء بالعهود بين الأفراد والجماعات، وبين الأمم والشعوب، حتى يعم الأمن والسلام والاستقرار المجتمع كله، وينتشر الوئام بين الناس، فلا يمكن أن يكون المجتمع مستقراً وآمناً دون انتشار للوفاء بين الناس، فالوفاء يبعث على الثقة بين النفوس، والاطمئنان في القلوب، فيقوم كل فرد بمسؤوليته تجاه نفسه ومجتمعه والإنسانية عامة.

إن انتشار روح الوفاء بين الناس، دليل على كرامتهم واحترامهم، فالوفاء لا يكون إلا من الكريم الحافظ للمعروف، وهي من عوامل أمن واستقرار المجتمع، والغدر والخيانة هي علامات خسة في الطبع لا تبشر بخير، إنما هي نذير شؤم تعمل على تمزيق أواصر العلاقة بين أفراد المجتمع، من هنا كان اهتمام الإسلام به كبيراً.

ونحن في فلسطين يهمنا أمر الوفاء كثيراُ كباعث لروح العطاء والفداء، وفاء الأبناء لآبائهم، وفاء المواطنين لوطنهم، الوفاء للشهداء والأسرى والجرحى، وفاء الزوج لزوجته، والزوجة لجها، وفاء الجيل الجديد للأجيال السابقة، وفاء الطالب لمعلمه،

الوفاء لذوي الفضل والعطاء، الوفاء للقادة والزعماء، وهكذا تتلاحم جموع الجماهير لما فيه الخير للجميع.

قيمة الوقت

الوقت هو من أثمن وأنفس الأشياء في حياة الإنسان فرداً أو جماعة، فكل شيء يمكن استرجاعه إلا الوقت، لم يتعلق بعودته أمل، لهذا هو أهم شيء، أهم من المال والجاه، وهو على مستوى الأفراد إن ضاع لا يعوضه شيء، وإن مضى نقص من العمر بقدر ما مضى، والوقت قيمة بالغة الأهمية في حياة الأفراد والجماعات، له تأثيره في تقدم الأمم ورقيها. والناس في غالبهم يغفلون عن الوقت وأهميته، فهو للأسف لا قيمة له عند كثير من الناس، يضيعونه ويهدرونه ويبددونه، بل يستعجلون انقضاء اليوم، والأسبوع والشهر والسنة، فالوقت عندهم ضائع ما بين جدّ قليل ولهو كثير، دون استفادة تذكر لهذا الوقت.

وقد اهتم الإسلام بالوقت اهتماماً كبيراً، فهو يعرف أهميته وقيمته، ويُقدّر خطورته، ويعمل بالحكمة التي تقول: "الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك"، ومن أهمية وقيمة الوقت أن الإسلام ربط عباداته وشعائره وطاعاته بالوقت، فالصلاة مثلاً: "

إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا" (النساء:١٠٣) ، فاليوم مقسم على خمس صلوات، لكل صلاة موعداً ووقتاً محدداً، لا تتقدم عنه دقيقة واحدة، وكذلك صلاة الجمعة وصلاة العيدين، جعل الإسلام لها وقتاً معلوماً، والصيام يبدأ من أول يوم في شهر رمضان حتى رؤية هلال شوال، ومن الفجر الصادق حتى غروب الشمس، ثم جعل فريضة الحج مرتبطة بمواعيد لا تتخلف عنها اطلاقاً، "**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ**.."(البقرة:١٩٧)، وتبدأ المناسك من اليوم السابع إلى العاشر من ذي الحجة، كذلك فريضة الزكاة لها موعد وهو أن يحول الحول على المال (النصاب الزمني)، فالوقت ساعة أو يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة، له علاقة لا تنفك عن القيام بشعائر الإسلام.

إن الوقت قيمة من القيم الحضارية الهامة، التي نبه إليها الدين ودعا الناس للالتزام بها، وعدم ضياعها، لدرجة أن الله أقسم بالوقت في أكثر من آية: " **وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢)** سورة الضحى، وقوله تعالى: **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢)** سورة الليل، والله لا يقسم بشيء لا قيمة له، هذا الوقت يجب شغله بالعمل النافع والمنتج، الذي من خلاله تقوم الحياة وتُشيّد الحضارات، لهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلّم

العمر (الوقت)، من ضمن أهم ما سيُسأل عنه الإنسان يوم القيامة: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه ..)، ومن محافظة الإسلام على الوقت حثه على التبكير، وأن يبدأ عمله من بداية يومه نشيطاً معافى الجسم والنفس: (اللهم بارك لأمتي في بكورها). (صحيح ابن حبان/٤٧٥٤)، ومن هنا يكره الإسلام السهر الذي يكون سبباً في ضياع صلاة الفجر، والتأخر عن القيام بالعمل.

إن الوعي بقيمة الوقت من شأنه أن يؤدي إلى الانتفاع به في كل المجالات، فبدون ذلك لا تتقدم صناعة ولا زراعة، ولا تعليم، ولا نبني حضارة، فالوقت واستغلاله عامل رئيسي في تقدم حياة الإنسان، وليقوم الإنسان بالخلافة في الأرض عليه أن يوظف الوقت لصالح فعل الخير، والإنسان فرداً مهما كان عمره طويل، هو في الحقيقة قصير، لهذا عليه أن يستغله الاستغلال الأمثل، وأن يوظفه التوظيف المفيد، فما يمضي من حياتنا لا يمكن أن نستعيده.

ومن المؤسف أن كثيرين من الناس لا يبالون بإضاعة الوقت دون فائدة، وليس هذا فقط بل يكونون سبباً في تبديد وضياع أوقات غيرهم، ونحن نشاهد المئات ممن يقضون أوقاتاً

طويلة في الجلوس على المقاهي والمنتديات، أو على قارعة الطريق بالساعات الطوال، يقتلون في أعمارهم وكأنهم ينتحرون انتحاراً بطيئاً، وإن دعوتهم إلى العمل تعللوا بعدم الفراغ، ومما أصيب به الناس في زماننا إضاعة الوقت أمام جهاز الحاسوب، أو بين يدي الجوال، ليل نهار يتنقلون من صفحة إلى أخرى من صفحات الفيس، في الغالب دون فائدة ترجى.

إن الوقت الذي يمضي دون فائدة وقت ضائع، والعمر كما ذكرت قصير، فلا داعي أن نُضيّع بعض هذا القصير، ولن ينفع الندم فيما بعد على إضاعتنا لوقتنا، وعدم استغلالنا له الاستغلال الأمثل، لأنه لا يمكن أن نعود بعقارب الساعة للخلف أبداً، وفي هذه اللحظة بدل أن كان الوقت نعمة من الله وجب الانتفاع به، ينقلب إلى حسرة وندامة لأننا ما قدرنا على الانتفاع به.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "إن المسلم الحق يغالي بالوقت مغالاة شديدة، لأن الوقت عمره، فإذا سمح بضياعه، وترك العوادي تنهبه فهو ينتحر بهذا المسلك الطائش".

ومما نلاحظه على المجتمعات الأجنبية أنهم يحرصون كل الحرص على الوقت، الحافلة والقطار والطائرة تتحرك بوقت محدد

مسبقاً، لا تتقدم عليه ولا تتأخر، الموظف والعامل يبدأ عمله بساعة محددة بالدقيقة، وينتهي أيضاً في ساعة محددة وبالدقيقة، أي عمل يتم مسبقاً تحديد المدة الزمنية لإنجازه دون تأخير، يكاد يكون كل شيء عندهم منظم ومنضبط بالوقت، المواعيد عندهم محترمة، صحيح الوقت عندهم من ذهب، يحرصون كل الحرص على عدم إضاعة أوقاتهم، فلا زيارات أثناء العمل، ولا قراءة للجرائد والمجلات، أو المحادثات الهاتفية، ولا إطالة الوقت في العبادة (الصلاة وتلاوة القرآن)، على حساب العمل، بهذا تقدموا وصنعوا لأنفسهم ومجتمعاتهم المجد والرفاهية والرقي.

إن حركة النهضة التي عمت كثير من الدول في الفترة الأخيرة، كان من ضمن عوامل نجاحها استغلال هذه الشعوب للوقت بطريقة ممتازة، وتوظيف هذا الوقت للفائدة والمصلحة، إن الصناعة الحديثة الوقت بالنسبة لهم هو أغلى عنصر فيها، المواطن العربي أقل إنسان معرفة لقيمة الوقت، يتفنن في إضاعته وهدره، لهذا لا حظ له في تقدم أو رقي.

نحن بحاجة إلى توظيف جيد للوقت، في بيوتنا، الزوجة التي يضيع يومها في إعداد وجبات الطعام، ومعه تحطيم لقوة الجسد، المدرسة وإمكانية استغلال الوقت فيما يعود بالنفع على

الطلاب، إننا نعيش حالة من الفراغ السلبي غير المفيد، ننام لنصحو، ونصحو لننام، وخصوصاً فئة المستنكفين عن العمل، أو الخريجين والعمال الذين لا يجدون فرص عمل. إن الوقت أحياناً كثيرة ليس في صالحنا، لأننا لا نستغله الاستغلال الجيد، لهذا كان من الضروري العمل على تغيير نمط حياتنا، كل من خلال نفسه لعل الله أن يأخذ بأيدينا لما فيه الخير والمصلحة.

قيمة النظافة

ليس هناك هدياً أعظم من قوله تعالى: **يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (الأعراف:٣١)**، وقول النبي صلى الله عليه وسلّم: (إن الله جميل يحب الجمال). (مسلم/١٦٠)، ومن القول المشهور: (النظافة من الإيمان)، إن الأناقة في غير سرف، والتجمل في غير صناعة، وتزويق، وإحسان الشكل بعد إحسان المخبر يُعتبر من تعاليم الإسلام، وجزء من الإيمان. جعلها الدين واجباً من الواجبات للكثير من العبادات والطاعات، فنظافة الأجساد وجمالها من الأمور التي أولاها الإسلام كبير اهتمامه وعنايته، ومقصد من مقاصد الدين والشريعة، فلا تُقبل صلاة إلا بالطهارة والنظافة، فقد طلب الدين من المسلم أن يتوضأ لكل صلاة: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا** (المائدة:٦)، وهذا يعتبر أعلى قيمة للنظافة.

والنظافة مطلب ضروري لقيام حياة صحيحة وسليمة من الأمراض والآفات، وهي علامة على قوة الجسد والروح، وصورة حضارية تدل على رقي الفرد والمجتمع، ومظهر من مظاهر الذوق وسمو الخلق، له علاقة بسلامة التفكير وصحة النفس، ونظرة التفاؤل والأمل، والاندفاع نحو العمل والإنتاج، والقدرة على العطاء والحياة السعيدة، لهذا لا غرابة أن تجد الإسلام يحارب كل شيء يحول دون نظافة الإنسان والمكان، والدعوة للتجمل والتأنق، وجعل نظافة المكان شرطاً لصحة العبادة (الصلاة)، واعتبر أن التهاون في أمر النظافة عامل من عوامل انتشار الأمراض المؤدية إلى الضعف والتشاؤم، والمستنزفة لقوى وقدرات الأفراد والمجتمعات.

والنظافة التي ينشدها الإسلام ليست هي النظافة المادية فقط، بل الدين وبنفس القدر من الاهتمام يولي النفس والروح، فنظافة الجسد والمكان واللباس، نظافة مادية، علاقتها بمظهر الإنسان الخارجي، وهي من المكانة بحيث لا يستغني عنها الإنسان السوي والصحيح، فلا قيمة للحياة دون بيوت نظيفة وشوارع نظيفة، وقرى ومدن نظيفة، مدارس وجامعات وعيادات ومستشفيات، متنزهات وشواطئ نظيفة. فالنظافة المادية سبب

للراحة النفسية والقبول والرضا، وقد سُئل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: ما يعجبك في الرجل، فقال أول ما يُعجبني في الرجل هيئته، وهذا صحيح، فإن كان المظهر والهيئة جميلاً استحوذ على القبول والرضا والاحترام، وبالتالي كان له التأثير المبدئي.

ولأن الإسلام يعرف قيمة النظافة جعلها جزء لا يتجزأ من الإيمان، فهي ليست أمراً دنيوياً مادياً، بل هي جزء من عقيدة الإيمان، من هنا جاء قول النبي صلى الله عليه وسلّم: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق). (مسلم/٣٥)، كما حث الإسلام على النظافة عند دخول المساجد جعلها مطلباً أدبياً وإنسانياً عند اجتماع الناس حتى لا يتأذى الناس بالروائح الكريهة من بقايا الطعام والشراب، أو ممارسات الأعمال المختلفة، ولهذا حبب الإسلام للآباء تربية أولادهم وتعويدهم على النظافة من الصغر، وجعل ذلك سلوكاً طبيعياً لهم، يمارسونه في كل جوانب الحياة، نعلمهم أهمية الترتيب ونظافة المكان الذي يقيمون فيه، البيت، المدرسة، الشارع، المسجد، المتنزه، العيادة، فلا يُلقي فيها مخلفاته وبقاياه، وبالتالي تصبح هذه العادات طبع وسلوك عنده.

إن قيمة النظافة قيمة عامة وشاملة، تشمل كل جوانب الحياة، الإنسان والحيوان والنبات والجماد والبيئة، وليست مقتصرة على فئة معينة، أو أماكن محددة، فأنا نظيف في بيتي وشارعي ومدينتي، مع الإنسان والحيوان والنبات والجماد، مع كل الأجناس والألوان واللغات والأديان والبيئات، كيف لي أن أكون إنساناً متحضراً نظيفاً وأنا أعيش في بلاد الغرب، فإن عدت لبلادي عدت لممارسة ما كنت أمارسه من سلوكيات غير راقية وغير نظيفة.

وكما سبق أن ذكرت بأن النظافة ليست مادية فقط، بل معنوية أخلاقية، فالكذب سلوك غير أخلاقي علاقته بنظافة اللسان وعفته، فنظيف اللسان لا يفحش في القول، ولا يسب ويشتم، ولا ينم ويغتاب على أحد، كذلك اللص الذي يسرق، علاقته بنظافة اليد، والذي ينافق علاقته بنظافة السريرة وإخلاص العمل، والحسد والغيرة والحقد آفات لا تدل على نظافة صاحبها، إنما تدل على حقارة داخله ونفسيته، لهذا يحرص الإسلام وكل دين وكل منظومة أخلاقية أن يكون الفرد والمجتمع نظيف في ظاهره وباطنه.

ومن هنا يتضح لنا أن النظافة قيمة أخلاقية من القيم الحياتية الشاملة والتي بدونها لا يمكن أن نطلق على الفرد أو المجتمع أنه نظيف بدونها، والقيمة الأخلاقية لا قيمة لها إن لم تكن سلوكاً ملموساً وممارساً في حياة الناس اليومية، فلا قيمة للإنسان إن لم يحيا في بيئة نظيفة مادياً ومعنوياً، حتى يتقدم ويرتقي.

إن النظافة المادية الخارجية من أقوى أسباب سعادة الإنسان وراحته النفسية، لهذا تركز الدول على نظافة مدنها وشوارع وطرق بلدانها، وتحرص على تجميلها بالحدائق والبساتين، وذلك لخلق ظروف نفسية مواتية للتنمية والرقي، وقد اهتم كما ذكرت سابقاً الإسلام بنظافة المكان والبيئة اهتماماً واضحاً، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم واضح في هذا: (خمس من الفطرة – أي من الدين – الاستحداد والختان وقص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظافر). (البخاري/٥٨٨٩)، وحديثه الآخر: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة). (البخاري/٨٨٧)، وفي الوضوء المضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين وتدليك أعضاء الجسم التي يمر عليها ماء الوضوء، كل ذلك خمس مرات في اليوم، هل هناك دعوة للنظافة بحجم هذه

الدعوة، فالإنسان النظيف، النظافة المادية والمعنوية هو الأقدر على العطاء، والصدق والانتماء والتعاون.

ونحن كشعب فلسطيني في أمس الحاجة إلى أن نمارس النظافة بكل معانيها في حياتنا، النظافة المادية في بيوتنا ومدارسنا وشوارعنا وأسواقنا، والمعنوية في علاقاتنا مع بعضنا البعض، الصدق والأمانة وعدم التدخل في شئون الآخرين، نظافة اللسان ونظافة اليد، نظافة القلب، نظافة العين والأذن، بهذا نكون مجتمع راقي ينهض بأبنائه، نحوز على سمعة طيبة تكفل تضامن الشعوب والأمم معنا، فنصمد في مواجهة عدونا، ونحرر أرضنا ومقدساتنا.

قيمة العدل

العدل، يكفي هذه القيمة مكانة أنها أخذت اسمها من أحد أسماء الله تعالى (العدل)، بمعنى الذي لا يميل مع الهوى فيجور في الحكم، وهي قيمة تحتل أعلى مكانة بين القيم الأخلاقية في مردودها الفردي والجماعي، فهي تعني الاستقامة على طريق الحق والبعد عما هو محظور. وعرّفها الفقهاء بأنها "اجتناب الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر، واستعمال الصدق واجتناب الكذب وملازمة التقوى والبعد عن الأفعال الخسيسة"، وهي هدف من أهداف الرسالات السماوية: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** (الحديد:٢٥)، وقد عرّف الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، العدل بأنه: "وضع كل شيء موضعه، وهو التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم".

والعدل من أقدم القيم الأخلاقية التي عرفها الإنسان، وحياة الإنسان سلسلة متواصلة للبحث عن العدل وإقامته في الأرض، وهي رحلة محفوفة بالمتاعب وسفك الدماء لمقاومة الظلم الذي هو نقيض للعدل، والذي هو تحقيق للكرامة الإنسانية، وأكبر

صورة له ماثلة للأذهان هي القضية الفلسطينية، وكفاح وجهاد أهلها من أجل نيل حريتهم واستقلالهم على أرضهم وإقامة دولتهم التي تمثل العدل.

والدين يأمرنا أن نقف في وجه الظلم والظالمين، وأن ننصر المظلومين والمستضعفين قدر الإمكان، لحديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً). (البخاري/٦٩٥٢)، ونصرة الظالم تكون (أن ترده عن ظلمه فذاك نصره)، والله سبحانه لا يحب الظلم والظالمين، وهو سبحانه لما يقبل توبة التائبين يستثني منها مظالم العباد وحقوقهم، تبقى معلقة في رقبة التائب إلى أن يرد الحقوق لأصحابها، أو يحظى بعفوهم. وهذا من عظيم عدل الإسلام وحفظه لحقوق العباد، فالذنوب المتعلقة بالله، لله أن يغفرها أو يعاقب عليها، أما الذنوب المتعلقة بحقوق البشر فأمرها بيد أصحابها.

وقيمة العدل قيمة عامة شاملة لا تتجزأ، فهي لا تعرف الفروقات بين الناس والأجناس، كل البشر أمامها سواء، هكذا يجب أن يكون، لا اعتبار لفروق اللغة واللون والدين، ولا اعتبار لفروق الفقر والغنى، القوة والضعف، السيد والعبد، الحاكم والمحكوم، الكل سواء، فلا أنصاف حلول، إما عدل أو لا عدل:

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة:٨) وقوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (النساء:١٣٥)**، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها). (البخاري/٣٤٧٥)، ولا يمكن أن يعيش الفرد والمجتمع حالة الأمن والاستقرار إلا إذا شعروا بالعدل يسود ربوع البلاد، ويطال الجميع، بعدها سيتفرغ أبناء الوطن للعمل والبناء والتحرير.

والإسلام لا ينكر وجود فروق فردية بين البشر، في العقل والقوة والعطاء، لكنه يجعلهم سواسية أمام الحقوق الإنسانية، والقيمة البشرية، فالناس جميعاً خُلقوا من نفس واحدة، وبالتالي حقوقهم الإنسانية والبشرية واحدة، هم أمام أحكام الشريعة والقانون المدني سواء، فلا تحيز ولا هوى، وبالعدل تتحقق المساواة بين الناس، وبالمساواة يأخذ كل إنسان فرصته في الحياة، ومن هنا يكون صون حقوق الإنسان من أن تداس بالواسطة والمحسوبية،

فأيما مجتمع ساد فيه العدل قويت الروابط الإنسانية بين أفراده، وشعر أفراده بالكرامة.

وحتى يعيش المجتمع حالة العدل بين أفراده، على كل فرد أن ينطلق من ذاته، فمتى حقق كل واحد منا العدل من داخله، وفي سلوكه كان أجدر أن يحققه مع الآخرين، فالعدل الذاتي هو نقطة الانطلاق لتحقيق العدل في جميع مناحي الحياة، ومع الآخرين أفراداً وجماعات.

ومجالات العدل تشمل كل جوانب الحياة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكلها مرتبطة في بعضها البعض، فلا يمكن أن نفصل بين هذه الجوانب لأنها تشكل في مجموعها حياة المجتمع وحركته، وكلها في النهاية تصب في مصلحة الفرد والجماعة. ومصدر قيمة العدل إما ديني، أو فلسفي عقلي، وقد اهتم المفكرون الإسلاميون كثيراً في قضية العدل وتكلموا فيها كثيراً، خصوصاً المعتزلة الذين جعلوها أحد أصولهم الاعتقادية الخمسة، والذين أطلق على فرقتهم أهل العدل والتوحيد، كذلك نالت قضية العدل في بُعدها الأخلاقي والسياسي اهتمام الفلاسفة أمثال الفارابي (ت ٣٣٩هـ)، وابن مسكويه (٤٢١هـ)، وابن سينا (٤٢٨هـ)، وابن باجه (٥٣٣)، وغيرهم، وقد ربطوا بين العدل

والسعادة، وعندهم أن العدل يتجسد في المجتمع حينما ينصرف كل فرد إلى الوظيفة الملائمة لمواهبه الفطرية وقدراته المكتسبة، ويتعاون مع الآخرين في تحقيقها.

ومن المجالات التي ورد فيها مفهوم العدل في الإسلام: عدل الإنسان مع نفسه، والعدل في الأسرة، والعدل مع اليتامى، والعدل مع أهل الكتاب، والعدل مع الأعداء، والعدل في القول والشهادة، والعدل بين المتخاصمين، والعدل في الحكم، وقد ذهب ابن تيمية إلى أن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، لهذا يُروى أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة.

يظن البعض أن العدل أن تعطي الجميع بالتساوي، فإن أعطيت فلان عشرة دنانير، فمن العدل أن تعطي الآخر عشراً مثلها، والحق أن هذا ليس عدلاً ولا مساواة، العدل الحق أن تعطي كل إنسان قدر عطائه وحاجته، فمن يعمل يأخذ ومن لا يعمل لا يأخذ حتى يعمل، ومن هنا فإنني أقول وبأعلى صوتي، وأصرخ حتى يسمعني من لا يسمع، أن قطع رواتب الموظفين العاملين ظلم، وسيكون على أصحابه ظلمات يوم الحساب، وفي نفس الوقت إعطاء من لا يعمل (المستنكفون)، راتباً شامل كل البدلات

هو أيضاً ظلم وإفساد في الأرض كبير، ففيه نشر للكراهية والأحقاد، وفيه إغراء بالكسل وعدم الإخلاص، وفيه تفريق بين الناس بناء على الانتماء للحزب أو التنظيم، وليس بناء على العمل والعطاء والتقوى.

ونحن كشعب فلسطيني أحوج ما نكون إلى أخلاق العدل والعدالة، العدل في علاقاتنا كأفراد وجماعات، العدل من الحاكم تجاه رعيته، العدل من الزوج إلى زوجته، ومن الزوجة تجاه زوجها، العدل من الأب بين أولاده، فلا يقدم أحدهم على بقية أبنائه، العدل من التاجر تجاه الناس، فلا يرفع الأسعار، ولا يغش في بضاعته، العدل من القاضي بين المتخاصمين، فإن حكم بين الناس حكم بالعدل بعيداً عن الهوى والمصلحة، نحن بحاجة إلى العدل من الأطباء فيرحموا المرضى من ارتفاع مصاريف العلاج والكشف، نحن بحاجة إلى العدل الاجتماعي بين كل أفراد المجتمع، ما بين الفقير والغني، وما بين القوي والضعيف.

قيمة البِرّ

والبِرّ اسم من أسماء الله تعالى: {إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البَرّ الرحيم}، وهو لفظ يطلق في اللغة على المكان المتسع الذي لا ترى حدوده بسبب اتساعه، وقيل بمعنى الزيادة في الشيء الحسن الطيب بدون حدود ولا نهاية، وقيل هو كثرة الإحسان. وعرّفه العلماء بأنه اسم جامع للخيرات كلها، يراد به التخلق بالأخلاق الحسنة مع الناس، بالإحسان إليهم وصلتهم والصدق معهم، ومع الخالق بالتزام أمره واجتناب نهيه، وهو يُطلق ويُراد به العمل الدائم الخالص من المآثم، ويقابله الفجور والإثم وهو اسم جامع للشرّ، قال الله تعالى: " **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**" **(المائدة:٢)** ، قال الماوردي: "ندب الله تعالى إلى التعاون على البرّ، وقرنه بالتقوى لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البرّ رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته"، وقد ربط النبي ما بين البرّ والخُلق الحسن: (البرّ حسن الخلق). (مسلم/٢٥٥٣).

والبرّ قيمة أخلاقية جامعة، وأول ما يتبادر إلى الذهن حين سماعها هو برّ الوالدين والإحسان إليهما، والصلة والإحسان للفقراء واليتامى والمساكين، وكلا المعنيان في غاية الخيرية والفلاح، إلا أنهما يمثلان جزءاً من المعنى العام لمفهوم البرّ، فللبرّ معاني كثيرة تكاد تشمل جوانب الحياة بأكملها، الفردية والجماعية، ما يتعلق منها بالإنسان، وما يتعلق بغيره من المخلوقات. وبهذا يكون البرّ اسماً جامعاً للطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله تعالى.

ولفظ البرّ بمشتقاته ورد كثيراً في القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومن مشتقات هذا اللفظ ما يطلق على الله تعالى: {البرّ الرحيم}، ومنه ما يُطلق على الإنسان، وهو يعني مفهوماً شاملاً لكل المعاني النفسية والأخلاق الراقية، وما يترتب عليهما من أعمال صالحة تقرب الإنسان من الله وتوثق صلته به، إذن البرّ قيمة شاملة لمعاني الخير دينياً ودنيوياً وآخرة. وللبرّ علاقة قوية بالضمير، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلّم عن البرّ والإثم فقال: (استفت قلبك، البرّ ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب ..). (أحمد/١٨٠٢٨).

وعلاقة البرّ ليست بالمظاهر والهيئات، إنما ارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالجوهر وحقائق الأمور: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر ..}، وقد بيّن العلماء أن البرّ له أنواع ثلاثة، البر في العقيدة، والبرّ في العمل، والبرّ في الخلق، فأما البرّ في العقيدة فهو الصدق فيها، ويشمل الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وأما البر في العمل فيشمل صور كثيرة منها ما ترجع في أساسها إلى انفاق المال على الفقراء والمساكين واليتامى، وذوي الأرحام والقربى، أما البرّ في الخلق فهو عام يشمل كل الفضائل الخلقية وأهمها الوفاء بالعهود، والثبات في وجه الشدائد، فمعنى البرّ يشمل جميع جوانب الحياة.

ولمفهوم البرّ في الديانات الأخرى (اليهودية والنصرانية)، معنى الاستقامة والتقوى والعدل في ممارسات الإنسان في حياته اليومية تجاه ربه ونفسه وتجاه الآخرين، وكما عرفنا من قبل فإن معناها في الإسلام الإحسان، وعند أهل الفكر والفلسفة هي بمعنى الكمال. وكما يكون البرّ بالعمل، يكون كذلك بالقول، من خلال الكلمة الطيبة، وقد وُصف الإسلام بأنه دين البرّ، وذلك من خلال تعاليمه السهلة ويسره وتخفيفه عن اتباعه كثيراً مما شُدّد على من

سبقهم: (٢٧) **يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (النساء:٢٨)**. وأعلى وأرقى صور البرّ هو برّ الوالدين: " **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**" **(الإسراء:٢٣)** ، والبر هو الذي يزكي الأعمال والعبادة، قال النبي صلى الله عليه وسلّم: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)، وهكذا في كل عمل ديني أو دنيوي أو أخروي.

ومن أعمال البرّ، برّ الأيتام والمساكين والضعفاء والإحسان إليهم، والقيام على حقوقهم وعدم تضييعها، كذلك من البرّ، البرّ بالأرحام وذلك بصلتهم والإحسان إليهم، وتفقد أحوالهم والقيام على حاجاتهم ومواساتهم، فقد جعل الله تعالى قطع الأرحام من الفساد في الأرض، ولعن من يقطع رحمه، ومن البرّ، برّ اليمين وهو أن يَصدق المرء في يمينه فيأتي بما حلف، ومنه الحج الذي لا يخالطه إثم ولا رياء، ومنه البيع المبرور الذي لا غش فيه ولا خيانة.

إننا نستطيع القول بأن قيمة البرّ في الحياة، وسلوك الناس لها في حياتهم اليومية مما يجعل لحياتهم رونقاً جميلاً، ويضفي عليها سعادة خاصة تنعكس على علاقاتهم بالمودة والرحمة، هذا

في الدنيا، وفي الآخرة جزاؤهم موفور: **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (المطففين:١٣)** ، وقوله تعالى: **إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (الإنسان:٥)** ، لهذا كان لزاماً على كل فرد أن يحرص على تمثل خلق البرّ في كل جوانب حياته، التاجر في تجارته، والعامل في مصنعه، والمزارع في زراعته، والمعلم مع طلابه، والموظف مع المواطنين المترددين عليه لقضاء حوائجهم، والحاكم مع رعيته، والغني مع الفقير، والقوي مع الضعيف.

إن قيمة البرّ قيمة شمولية عامة، لا تقف عند حدود الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين أو المكان، وكما تتعلق بالإنسان فإنها تتعلق بباقي المخلوقات، البرّ بالحيوان أن تحسن إليه وترعاه وتعالجه وتطعمه، ولا ترهقه في عمل، وأن تحسن ذكاته حين ذبحه.

ونحن كشعب فلسطيني في أمس الحاجة إلى روح البر لترفرف على ربوع بلادنا، وخصوصاً بعد أن بدأت تطفو على سطح علاقاتنا العقوق ونكران الجميل، وعدم الوفاء، قصص عقوق الوالدين، وعقوق الطالب لمعلمه، وعدم قيام الزوج بحقوق زوجته، والزوجة بحقوق زوجها، صراعات الأخوة فيما بينهم، والجيران، هضم حقوق الرعية من قبل الحاكم ورجل السياسة،

جرائم التجار بالغش والاستغلال، نحن بحاجة لإعادة صياغة منظومة أخلاقنا من جديد، بعد أن حطمها الاحتلال، وجرينا وراء الماديات الزائلة، ولن ننتصر على عدونا ما دامت هذه هي أخلاقنا، وحتى نحيا حياة كريمة سعيدة علينا أن نقيم البرّ بيننا.

قيمة العلم

وهو بمعنى معرفة الشيء، وفي الاصطلاح: إدراك الشيء بحقيقته، وهو أساس لمعرفة الله تعالى ودينه وعقيدته، وما يلزم للإنسان في حياته اليومية، لهذا اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية بأمره، حتى بلغت مواضع ذكره في القرآن (٨٥٠)، موضعاً، وقد أفرد البخاري وحده في صحيحه كتاباً سماه كتاب العلم، بلغت أبوابه (٥٣) باباً، تحتوي على عشرات الأحاديث، وقد ارتفع الإسلام بمنزلة العلماء، وقدّر جهدهم، وكرّم ثمارهم إلى أرقى الدرجات: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}، وقوله تعالى: **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران:١٨)** ، وعن معاذ بن جبل: "تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العليا في الدنيا والآخرة، التفكير فيه يعدل الصيام،

وممارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال من الحرام".

لهذا جعل الإسلام العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (من سلك طريقاً فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة). (صحيح ابن حبان/٨٨)، وقال تعالى: {وقل رب زدني علماً}، فالنبي لم يطلب من الله زيادة في شيء من مال أو جاه أو قوة، إنما طلب زيادة في العلم، وذلك لمكانة العلم في الحياة. وكلنا يحفظ العبارة المشهورة "العلم نور"، فالعلم من شأنه أن يزيل ظلام العقول، ويمحو الجهل الذي هو ظلمة في العقل تحجب عنه المعرفة فتجعله عاجزاً عن فهم ما يدور حوله، والجهل يُعد حجاباً سميكاً أمام العقل الإنساني.

والعلم يعتبر تأكيداً لإنسانية الإنسان، والجهل ينزل به إلى مرتبة الحيوان.

ومن أبرز مظاهر اهتمام الإسلام بالعلم أوائل ما نزل من القرآن الكريم **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)** سورة العلق، فقد تكرر فيها الأمر بالقراءة مرتين، وهذا يعني قراءة الكتاب المسطور وهو القرآن الكريم،

وقراءة الكتاب المنظور وهو الكون الكبير. وقد كان سلوك النبي صلى الله عليه وسلَّم مع أصحابه دافعاً لهم لتلقي العلم، ومن أبرز مواقفه ما فعله مع أسرى بدر يوم طلب ممن يعرف القراءة والكتابة منهم تعليم عشرة من المسلمين مقابل فك أسره، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن من يمتلك العلم يكون قادراً على امتلاك القوة، وبالتالي يسهل عليه صنع الحضارة والرقي والأمن.

وقد نقل العلم الأمة العربية، والعالم من حالة الجهالة إلى حالة المعرفة والرقي، وكان للمسلمين دوراً بارزاً وعظيماً في النهضة الإنسانية من خلال ما تركوه لمن خلفهم من تراث علمي وحضاري، فاق مئات الآلاف من الكتب في شتى المجالات العلمية والبحثية، وقد كان من منهج النبي صلى الله عليه وسلَّم في نشر العلم أن يدعو أصحابه إلى تبليغ غيرهم ما تعلموه منه: (ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه). (البخاري/٤٤٠٦)، وقد جعله النبي ميراث الأنبياء، فالعلماء ورثوا العلم عن الأنبياء، لكن للأسف جاءت أجيال من المسلمين أضاعوا الكتاب القرآن)، وتركوا العلم حتى وصلت نسبة الأمية ما يقرب من ٥٠% من نسبة السكان، في حين بلغت بعض الشعوب مستوى راقياً من العلم حتى لم يبق عندهم أمي واحد، وهذا يبين

لنا الفرق بين مستوى التقدم بين المسلمين وغيرهم من الشعوب، فكلما قلت نسبة الأمية اقترينا من طريق النهضة والرقي والرفاه، وكلما زادت الأمية كان ذلك دليلاً على ارتفاع نسبة التخلف.

إن العلم قيمة ينبغي أن نحرص عليها ونبذل في سبيلها كل غال ونفيس، والجهل والأمية يمثلان وصمة عار، يعطلان كل سبيل للنهضة والتنمية، فالجهل يعني انتشار الخرافات والأوهام، وسوق رائج للدجل والشعوذة، وهذا معناه المزيد من التخلف والتعصب والجمود والانغلاق.

وقد ذم الإسلام الجهل وأهله، قال تعالى: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** (٦) الحجرات}، وقول النبي صلى الله عليه وسلّم: (إن بين يدي الساعة لأياماً يرفع فيها العلم، وينزل فيها الجهل، ويكثر فيها الهرج). (البخاري/٧٠٦٢)، وقد وصف الإمام الغزالي الجهل قائلاً: "العلم ضد الجهل، والجهل من لوازم الظلمة، والظلمة من حيز السكون، والسكون قريبٌ من العدم، والجهل مثل العمى والظلمة، والعلم مثل البصر والنور"، وأقبح أنواع الجهل من يرى فيه صاحبه فضيلة، ويستقبح العلم ويستحسن تركه، وأخطر الجهل ما كان سبب تمادي صاحبه

بالكفر والإصرار على البدعة والضلالة والتمادي في الغي، وترك الشرعيات. وأفضل وسيلة لعلاج الجهل نشر العلم؛ من خلال بيان أهمية فضله، وتيسير الوصول إليه، ونيل الحظ الوافر منه، وتسهيل أمره على طالبه، وتعليمه ما يلزم من أمر دينه ودنياه وآخرته.

وقد قال عمر بن الخطاب: "تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه، ولمن علمتموه ولا تكونوا جبابرة العلماء"، وقال الماوردي (ت ٤٥٠هـ): "ليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل، لأن فضل العلم إنما يُعرف بالعلم، وهذا أبلغ في فضله، لأن فضله لا يُعلم إلا به، فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون إلى فضل العلم جهلوا فضله، واسترذلوا أهله"، وقد وصل بنا الحال في فترة من الفترات إلى تفضيل الجاهل على المتعلم، وتفضيل العامل البسيط على المتعلم من حملة المؤهلات العليا، حتى وصل الأمر أن المتعلم كان لا يُقبل طلب زواجه، في نفس اللحظة يُقدّم عليه من دونه من الحرفيين وأصحاب المهن الخدماتية، والسبب الفروق في الدخل المادي.

أما عن العلم الذي يدعو الإسلام أتباعه لتعلمه فهو كما يقول الشيخ الغزالي: "العلم الذي يُقبل المسلم عليه، ويستفتح أبوابه بقوة ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب، ليس علماً محدد البداية والنهاية، فكل ما يوسع آفاق النظر ويزيح السدود أمام العقل النهم، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود، ويفتح له آماداً أبعد من الكشف والإدراك، وكل ما يُتيح له السيادة في العالم، والتحكم في قواه والاستفادة من ذخائره المكنونة، فيجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه، وهذا ما دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وقيمة العلم عامة شاملة، علاقتها بالإنسان فرداً وجماعة، لا يعترف بشرق أو غرب، يتخطى حواجز اللون والجنس والدين واللغة، هو سبيل الرقي والنهضة والرخاء، ومفتاح السعادة والأمن والاستقلال، ما قامت نهضة، ولا شُيدت حضارة إلا على أسسه وقواعده، به تفوقت أمم على أمم، وبه سادت إمبراطوريات، وبنقيضه بادت حضارات.

ونحن كشعب فلسطيني أحوج ما نحتاج إلى العلم، لأنه سبيلنا في نيل حريتنا واستقلالنا، وطريقنا في الصمود في وجه عدونا، وقد حاز شعبنا الفلسطيني على سمعته الطيبة بين

الشعوب العربية وغيرها لما نال من درجات عالية في العلم، جعلت من أبنائه أساتذة لشعوب المعمورة، فنال الاحترام والتقدير والفضل، ومن خلال العلم استطاع المقاومون أن يبدعوا في وسائلهم القتالية في مواجهاتهم لعدوهم الإسرائيلي، ومن تطوير قدراتهم القتالية، ومع هذا نحن بحاجة للاستزادة أكثر وأكثر، لأنه بالعلم ومناهجه نتمكن من امتلاك القوة التي من خلالها نمتلك الأمن والرخاء والسلام.

قيمة التفكير

ومعناه إعمال العقل، وعند المفكرين هو نشاط عقلي مجاله التصور والتذكر والتخيل والحكم، وقيل الفكر هو حركة النفس في المعقولات، أي غير المحسوسات، والتفكير خاصية إنسانية بحتة لا يشاركه فيه مخلوق من المخلوقات الأرضية، وقد ورد ذكر التفكير في القرآن الكريم في (١٨) موضعاً: قال تعالى { **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)** البقرة}، ومعاني التفكير كثيرة منها النظر، والتدبر والتعقل والتأمل والتمييز. والإسلام ينظر الى التفكير على أنه عباده أمر الله بها عباده، والتفكير محله القلب، وقد كان منهج الأنبياء والمرسلين والحكماء والفلاسفة. وبالتفكير يرق القلب وتقوى البصيرة، ومن ثمرة التفكير العلم، وإذا حصل العلم في القلب تغيّر حال القلب، وإذا تغيّر حال القلب تغيّرت أعمال الجوارح.

لهذا ليس غريباً أن يقال: "تفكر ساعة خير من عبادة سنة"، لما يتبع هذا التفكير من إيمان بالخالق وخشوع للقلب، وتسخير لما في هذا الكون من موجودات لصالح الإنسان.

والتفكير في خلق الله يوصل الى محبة الله والشوق له، والأنس به، والاتصال برجائه، ورهبته وخشيته. وكذلك التفكير في أمر الدين يصحح العلاقة ما بين العبد وربه، وإصلاح أمر دنياه وآخرته. والفلاسفة عرّفوا الإنسان بأنه كائن مفكر، وهي ميزة انفرد بها الإنسان كما سبق بيانه عن بقية المخلوقات، وإذا ألغى الإنسان تفكيره تحول إلى حيوان أعجم لا منفعة من وجوده.

ومعنى أن الإنسان مفكر يعني استقلال في الشخصية الذاتية، يفكر لنفسه لا ينتظر من يفكر عنه أو له من المخلوقات الأخرى، وبالتالي نتيجة التفكير محاولة إدراك الواقع المحيط به، واتخاد القرار المناسب حسب وضعيته وما يحتاج إليه، ومن هنا تأتي النتيجة وهي تحمله للمسؤولية الأخلاقية والقانونية عما يعمل من أعمال، فالتفكير إذن عملية عقلية تتحول إلى إرادة ومسؤولية عما تقرره هذه الإرادة فإذا كان التفكير سليماً انتهى إلى قرار سليم، وإذا كان التفكير سقيماً غير واضح انتهى إلى قرار سلبي خاطئ.

لهذا فالتفكير قيمة عظيمة في حياة الإنسان فرداً أو جماعة، ينتج عنها إما الصواب أو الخطأ، وإما الخير أو الشر، وعلاقتها في حياة الانسان علاقة مصيرية في حاضره ومستقبله،

ومن هنا لم يكن غريباً ما قاله الفيلسوف ديكارت: "أنا أفكر إذن أنا موجود"، فالإنسان بدون إعمال التفكير يبقى كياناً جسدياً لا أهمية له، بل ربما ضرره أكثر من نفعه، وقد اهتم الإسلام ديناً وعقيدة وفكراً بقيمة التفكير، وكما سبق ذكره تكررت دعوته للتفكير قرآنا وسنة، وأوجب على المسلمين إعمال التفكير في جميع جوانب حياتهم، في الإنسان والمخلوقات بعمومها، والأرض بمكوناتها، والسماوات والنباتات: { **وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (١٣) الجاثية}.

فهذا الكون وكل ما فيه خلقه الله وسخره للإنسان لينتفع به وفيه، ولا يكون هذا الانتفاع إلا بالتفكير فيه، ووضع المناهج والأساليب لكيفية الاستفادة والتعامل معه، ومن ذلك البحث والتنقيب ومعرفة القوانين المناسبة للتعامل مع هذ الكون ومكوناته

إن التعامل مع الموجودات في هذا الكون لا يكون إلا بالتفكير، فهو أداة للسيطرة والتحكم، فما شُيّدت حضارة ولا تقدمت أمم ولا سيطرت حكومات إلا بالتفكير والعلم، فمن يفكر يسيطر ويصل الى مراده ومبتغاه، والذين يُلغون عقولهم ولا يفكرون، أفراداً أو جماعات لن يصلوا إلى شيء، وسيبقون في مؤخرة الركب،

وهذا ما حدث على مدار تاريخ الإنسانية، فأمتنا العربية والإسلامية لما أخذت بزمام العقل والتفكير والعلم نهضت وتقدمت وشيدت حضارة بهرت العقول، لكن لما جمّدت العقل وألغت التفكير وتجاهلت العلم واكتفت بالتقليد الأعمى، توقفت وتجمّدت الدماء في عروقها، فتقدم غيرها وتأخرت هي، وواقعنا خير شاهد؛ دولنا العربية وشعوبها تأخرت وتخلفت ودول الغرب تقدمت وازدهرت، وأصبحنا ننتظر منهم فُتات علومهم، ومخلفات مصانعهم وما تسمح به سياسات دولهم ومخططاتهم.

يذكر لنا التاريخ أن الأمة الإسلامية وعلى مدار قرون عدة امتلكت زمام الدنيا بأكملها، وذلك يوم أن كان عقل أبنائها يُفكر ويُحلل ويستنتج، ولكن يوم أن توقف هذا التفكير وانتشر فيهم مقولات مثل: "لم يترك الأولون للأخرين شيئاً"، ومثل: "ليس في الإمكان أبدع مما كان"، وانتشرت بينهم عقلية الخرافة والأوهام والشعوذة، يومها توقف المد الحضاري والابداع، وتجمدوا عند حفظ متون السابقين وترديد ما قاله السلف، وأصبح الفكر والتفكير جالباً لصاحبه الغم والهم والمتاعب، يومها تراجعت الأمة وأخلت مكانها لغيرها من الأمم التي أخذت بحظ وافر من التفكير والعقل والعلم.

إن قيمة التفكير لا تقتصر على جانب معين محدد، إنما هي شاملة لكل جوانب الحياة ومجالاتها، وكما هو معروف فإن الابداع يكون نتيجة التفكير والبحث والدراسة، وقد اهتم الإسلام والمفكرون الإسلاميون بقيمة التفكير حتى اعتبره أبن رشد واجباً شرعياً، واعتبره العقاد فريضة إسلامية. فالحضارة لا تتحقق الا بالتفكير واستخدام الإنسان لكل ملكاته العقلية والادراكية، ومن هنا حذرنا الإسلام من التقليد الذي يُلغي الشخصية والذاتية، لأنه يُسلم القيادة لغيرك فيقودك حسب رغباته وهواه، وهذا يتنافى مع كرامة الانسان. ومن أخطر نتائج التقليد انتشار الجهل والأمية، الجهل في الحياة والعلم والدين والثقافة والسياسة والاقتصاد، وبالتالي الاستسلام للخرافة والشعوذة والتبعية.

إن حال كثير من أبناء الأمة العربية والإسلامية كئيب ومظلم، لا مستقبل واضح المعالم أمامهم، لهذا نحن بحاجة إلى إعمال التفكير لنخرج من هذا المأزق الخطير سياسياً واجتماعياً وعلمياً واقتصادياً ودينياً، إن الأمة تنزلق في هاوية التطرف والتشدد والفرقة والتمزق وانتشار الكثير من الأفكار المعادية لحقيقة دينها وحياتها، ومواجهة هذا كله لا يكون إلا بالتفكير والمنهج العلمي الصحيح والنافع.

ونحن كشعب فلسطيني وفي خضم صراعنا مع عدونا الإسرائيلي الخبيث، بحاجة ماسة لإعمال التفكير في كل جوانب حياتنا، كذلك غرس هذه القيمة في نفوس الأجيال الجديدة، وتعليمهم كيف يفكرون، حتى ننجو بهم من مهاوي التطرف والتشدد والانحراف، وحتى لا ينخدعوا بما يسمعون من شعارات ومقولات زائفة، وحتى لا يكونوا أداة طيعة في أيدي أعداء الدين والوطن، نحن بحاجة للتفكير في إصلاح ما فسد من أمور حياتنا اليومية وبطريقة سهلة وبسيطة، عدونا يُفكر ويُخطط ويرسم خطوط مستقبله، وعلينا أن نواجهه بنفس الأسلوب والطريقة، فلا يفل الحديد إلا الحديد.

قيمة العمل

كثيراً ما نسمع شعارات جميلة في حياتنا، مثل: العمل شرف، العمل واجب، العمل حياة، ومثل هذه الشعارات عظيمة اذا تُرجمت على أرض الواقع إلى أفعال وأعمال، والعمل يندفع إليه الإنسان بفطرته، وبغريزته في حب التعاون والتملك، فبدون العمل لا حياة للإنسان، وبدون العمل يصعب على الإنسان أن يتحصل على مقومات الحياة، من طعام وشراب وكساء ومأوى، قال تعالى: { **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)** الملك}، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بالعمل الجاد المتواصل، الرعي والزراعة والصناعة والتجارة، وغيرها من أعمال، كلها وسيلة الإنسان للبقاء وخلافة الله في الأرض.

ولقد اختار الله الإنسان دون غيره من المخلوقات لإعمار الأرض، وزوده بالعلم الذي من خلاله تسهل مهمته، وبه يقيم له حضارة مزدهرة، لكن ذلك كله لا يكفي، فطلب منه العمل بما يعلم، وجعل العمل من أهم مسؤوليات الإنسان على ظهر هذه

الأرض، والتي لا غنى للحياة عنه، فلا معنى للحياة بدون عمل، وحرّم عليه الكسل والتواكل، وطلب من كل إنسان أن يعمل العمل المتناسب مع قدراته العقلية والجسدية، قال النبي صلى الله عليه وسلّم: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له). (صحيح الجامع/١٠٧٤)، ولأن قيمة العمل ذات أهمية كبيرة في الحياة عموماً، وفي دين الإسلام على الخصوص، حارب الإسلام التكاسل والتبطل عن العمل، فلا خير في إنسان لا يعمل مهما كان، وأيما كان، فقد رأى النبي رجلًا في المسجد يتحامل على الناس فسأل عنه النبي فقالوا هذا عابدنا، فسأل النبي عمن يرعاه ويؤكله فقالوا كلنا يا رسول الله، فقال النبي :(كلكم خير منه). (الطبراني في الأوسط/٧٢٥٠)، فالإسلام لا يرضى للمسلم أن يهجر الحياة والعمل بحجة العبادة، ويعتبر ذلك تنطعاً في الدين، والنص القرآني واضح في ذلك: {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها}، أي طلب منا العمل والاجتهاد، وترك الكسل والخمول.

وأي شيء لا يمكن أن نحوز عليه ونتحصل عليه إلا بالعمل، صغر أو كبر، قل أو كثر، وعمارة الأرض لا يمكن أن تتحقق الا بالعمل المستمر وبذل الجهد والسعي فيها واستخراج كنوزها وخيراتها من زراعة ورعي وصناعة لهذا سخّر الله لنا هذه

الأرض وجعلها ذلولاً ووهبنا العقل والقدرات الجسدية، وجعل فينا المواهب لاستثمارها واستغلال ذلك كله، ومن هنا جاء مدح النبي صلى الله عليه وسلّم للإنسان العامل على غيره: (اليد العلى خير من اليد السفلى). (البخاري/١٤٢٧)، لأن اليد العليا هي اليد التي تعمل وتنتج، واليد السفلى تنتظر نتيجة العمل لتأكل دون جهد وتعب.

والعمل قيمة لم ينفرد الدين بالدعوة إليها والحض عليها وحده، بل العقل والمنطق يؤكدان أهمية العمل في حياة الإنسان، فلا قيمة اجتماعية أو إنسانية وحياتية للإنسان الذي لا يعمل، والإنسان لا يستطيع أن يصل إلى ما يصبو إليه من رقي واستقرار واستقلال إلا بالعمل، والحضارة لم تُشيد إلا بالعمل وبذل المجهود المتواصل جيلاً بعد جيل، فالحضارات لم يشيدها الكسالى والمتعطلون عن العمل.

والعمل الذي ينشده الإسلام هو العمل المنتج المفيد، والمتقن، والذي يطلق عليه الإسلام العمل الصالح: { **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** (١١٠) الكهف}، فكل عمل نافع بدون تحديد اسم أو نوع هو عمل مقبول في الإسلام يؤجر عليه صاحبه، وقد حث الإسلام على الإخلاص

في العمل واتقانه: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه). (سنن البيهقي/٤/١٨٦٧)، ولم يحدد النبي صلى الله عليه وسلّم العمل إنما جعله عاماً يشمل كل أنواع العمل، من صناعة وزراعة ورعي وتجارة وخدمات ووظائف وإدارة.

ونحن نشاهد في زماننا الفرق بين الشعوب التي تعمل والشعوب التي لا تعمل، التي تعمل تقدمت وارتقت ونهضت بنفسها وشعوبها، وامتلكت زمام كل شيء، وسيطرت على القرار السياسي والاقتصادي، والشعوب التي أهملت العمل تأخرت وأصاب أهلها الجهل والفقر والمرض، وأصبحت عالة على الدول المتقدمة، وجعلت من نفسها تبعاً وخدماً وسوقاً رائجة للدول الصناعية المتقدمة، وبالتالي تلاعبت هذه الدول (المتقدمة)، في سياساتها وتوجهاتها، وتحكمت في تخطيط مستقبلها بحيث تبقى تابعة.

وفي الوقت الذي يدعو الإسلام فيه للعمل يحارب الكسل والخمول والتسول والتطفل: (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم). (البخاري/١٤٧٤)، فقد منع الإسلام مهنة التسول وخصوصاً للقادرين على العمل، حيث أن النبي صلى الله عليه وسلّم رفض الصلاة على متسول ترك مالاً

من التسول، كذلك منع الإسلام من الانقطاع للعبادة دون العمل وكسب قوت اليوم: (ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده). (البخاري/٥٥٤٦)، ونحن نلاحظ أن الأنبياء والمرسلين كانوا أصحاب حرف ومهن مارسوها قبل البعثة وبعدها، وذلك حتى لا يذِلوا لغيرهم ولا يتحكم فيهم أحد.

إن الشعوب والأمم التي ترجو لنفسها مكانة واعتباراً، لن يكون لها ذلك إلا بالعمل والاجتهاد ومواصلة الليل بالنهار، ونحن نرى شعوباً كانت مستضعفة (دول شرق آسيا – النمور)، ولم يكن لها ذكر في العالمين، لما أخدت في طريق العمل والجد، نالت المجد والمكانة وأصبح يقصدها القاسي والداني، وأصبح لها كلمة وشأناً، والشعوب العربية صاحبة المجد والتاريخ؛ لما تكاسلت عن العمل وتراجعت، ما عاد لها قيمة تُذكر، وقد كانت في التاريخ صاحبة مجد عريق، بل تكالبت عليها أمم الأرض تقاسموا خيراتها وتحكموا في مقدراتها.

ونحن كشعب فلسطيني بحاجة إلى العمل والاجتهاد، حتى نستطيع أن نخرج من مأزق سيطرة العدو واحتلال الأرض والحصار، فبالعمل نستطيع أن نبني لنا قوة وأن نستقل عن غيرنا،

العمل مطلوب من كل فرد في المجتمع كل حسب قدراته وامكاناته، ولا حجة أمام الكسالى والمتبطلين، فالفرصة مواتية أمام كل مجتهد، والإنسان صاحب الإرادة والعزيمة يستطيع أن ينحت في الصخر ليحقق ذاته ويستغنى عن غيره، كذلك نحن بحاجة الى اتقان العمل والإخلاص فيه، اتقان المزارع في زراعته، وعدم غش زراعته، كذلك اخلاص التاجر في تجارته فلا يغش ولا يحتكر، وإخلاص الموظف في عمله، وإخلاص السياسي في حكمه للبلاد، كل ذلك من أجل أن ننطلق بمجتمعنا إلى شاطئ الأمان .

قيمة الصداقة

نلتقي مجدداً مع قيمة جديدة، إنها قيمة الصداقة، وهي في لغة العرب بمعنى المحبة والمخالة والإخاء، وهي في عمومها لا تخرج من دائرة الصدق. وعند العلماء معناها قرابة رحم. وقد عرّفها أرسطو فيلسوف اليونان قائلاً: "إنسان هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك"، وعرَّفها ابن سينا فيلسوف العرب: "حالة الإنسان من حيث يهدي الخير لإنسان آخر لأجل ذلك الآخر لا لأجل نفسه". والصداقة أسمى علاقة إنسانية في الوجود، فهي اندماج شخصيات مختلفة في علاقة ومشاعر واحدة، وهي تفوق علاقة المحبة التي هي علاقة بين شخصين فقط.

ولأن الإنسان مخلوق اجتماعي لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الناس من بني جنسه، ولأن العزلة بالنسبة له موت مادي ومعنوي، كان لزاماً عليه أن يُكون علاقات مع غيره من الناس، هذه العلاقات تتفاوت في القوة والخصوصية من فرد الى آخر، وهذه العلاقات والروابط بغيره هي روح الحياة والتي بدونها لا قيمة للحياة، لأن الإنسان ليس جسداً خالصاً ولا عقلا خالصاً،

إنما هو جملة من المشاعر والأحاسيس، كيان وجداني لا يمكن إغفاله، وبعض هذه العلاقات قد تكون علاقة أخوة أو محبة أو صداقة أو علاقات منافع ومصالح مشتركة، أو زمالة عمل أو رفاقة طريق وسفر، هي متفاوتة إذن.

وقيمة الصداقة من أجمل وأرق وأسمى العلاقات التي تربط بين الناس، لأنها خالصة بعيدة كلياً عن المنفعة والمصلحة الوقتية. ومسمى الصداقة كما سبق ذكره مشتق من الصدق الذي هو نقيض الكذب والغش والخداع، الصداقة علاقة منزهة عن الهوى والغرض تنشأ وتتبني على عواطف متبادلة بين الطرفين، وأول شرائط الصحبة الطيبة والصداقة المتينة أن تُبرأ عن الأغراض وتتزه عن الغايات، وأن تخلص لوجه الله والحق، وتكبر في حاضنة الإيمان والإحسان وحسن الخلق، قال تعالى: { **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)** الزخرف}، وقول النبي صلى الله عليه وسلّم: (قد حقت محبتي للذين يتصادقون من أجلى). (أحمد/١٩٤٣٨)، ولقيمة الصداقة أثر كبير على الأصدقاء، يُعين بعضهم بعضاً على أداء الواجب، وحفظ الحقوق، ومنع بعضهم عن فعل السوء والإثم، والاقتراب من الحرام، فالصديق يقود صديقه إما إلى الخير وإما إلى الشر، وإما

إلى الفلاح وإما إلى الفشل، لهذا طلب منا الرسول صلى الله عليه وسلَّم حسن اختيار الصديق: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل). (أبو داود/٤٨٣٣)، وقول الله تعالى: { **يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)** الفرقان}، وللآسف إن عدوى السيئات أشد سيراناً وأقوى فتكاً من عدوى الحسنات.

يقول الشيخ الغزالي: "إن الصداقة يجب أن تعتمد على قوة العقائد، وسمو الأعمال، وخير من يستديم المرء عشرتهم، ويستبقي للدنيا والآخرة مودتهم، أولئك الذين عناهم الأثر: من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته".

ومن تعاليم الإسلام لاستدامة الصداقة كما قال النبي صلى الله عليه وسلّم: (إذا آخى الرجل، الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه، وممن هو فإنه أوصل للمودة). (كشف الخفاء/١٧٧)، والإنسان في زحام الحياة ومكابدة صعوباتها يحتاج إلى من يخفف همومه، يتسامرون ويتفكرون ويتنزهون ويتسابقون في فنون الرياضة واللهو المباح، يتبادلون الزيارة والهدايا، وتناول الطعام:

قال النبي صلى الله عليه وسلّم: (تهادوا إن الهدية تذهب وحر الصدر). (الترمذي/٢١٣٠)، أي غشه ووساوسه، وقول الله تعالى: {..أن تأكلوا من بيوتكم ... أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم}.

وليس مطلوباً من الصديق أن يكون نسخة مكررة عن صديقه، يتفق معه في كل شاردة وواردة، فلكل واحد منهما شخصيته وذاتيته، وأسلوب حياته، وإلا دخلنا في باب النفاق والمجاملة المرذولة، ومع أن الصداقة علاقة مشاعر وعواطف إلا أنها لا تستغني عن العقل ليزن من خلاله الأمور والأحداث، فاختيار الصديق ينبني على أسس عقلية خالصة، يستطيع من خلالها التمييز بين صديق الخير، وصديق الشر والسوء، ومن هنا جاء القول المأثور: "العدو العاقل خير من الصديق الجاهل"، ومن واجبات الصداقة ألا يتخلى الصديق عن صديقه، أيا كانت الظروف والأحوال، وأن يقف معه في الضرّاء كما يقف معه في السرّاء، وبالتالي مما يُعاب على البعض تخليهم عن أصدقائهم إذا تبدلت الأيام، وتغيرت الأحوال، وكشّرت الدنيا عن أنيابها بصديقه، بل عليه أن يزداد قرباً من صديقه في هذه الظروف

والأحوال، فأوقات الشدّة هي المحك أمام الأصدقاء، ليتبيّن للمرء من هو الصديق الحق ومن هو الصديق المزيف الكاذب.

صحيح أن الصداقة بمفهومها الصحيح أصبحت عملة نادرة في حياتنا، بعد أن غزتنا قيم المنفعة والمصلحة، والأنانية وحب النفس، وأصبحت الصداقة عزيزة المنال لما تحولت حياتنا إلى ماديات بحتة، وأصبح الصديق الوفي من المستحيلات كما قالت العرب: "من بين المستحيلات ثلاثة: الغول، والعنقاء، والخل الوفي". مع كل هذا لا يمكننا أن ننكر أن فرصة قيام صحبة وصداقة ممكنة إذا خلصت النوايا من الطرفين، ونموذج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم ليس عنا ببعيد، فكل يوم وكل لحظة نستحضر سيرتهم العطرة.

وقيمة الصداقة تتخطى الجنس واللون واللغة والدين والمكان، فها نحن نبني صداقات عن طريق صفحات التواصل مع أشخاص تفصل بيننا المسافات والأعراق واللغة والثقافة، نجد فيهم من المحبة والإخلاص والراحة النفسية والعقلية الشيء الكثير.

لقد اهتم الفكر الإسلامي بقيمة الصداقة، فأفرد لها حيزاً كبيراً في كتاباته، من إخوان الصفا، إلى أبي حيان التوحيدي، إلى ابن مسكويه، إلى الغزالي وابن المقفع وابن حزم والماوردي.

ونحن في فلسطين في أمس الحاجة إلى روح الصداقة في العلاقة بين أفراد الشعب، بين أبناء الأسرة الواحدة، بين الجيران فيما بينهم، بين أبناء الحي الواحد، بين زملاء العمل والمهنة الواحدة، نحتاجها في علاقة طلاب المدارس والجامعات فيما بينهم، بين أبناء الفصائل والتنظيمات، بين السياسي الحاكم والمواطن البسيط، بين أثرياء الوطن ومساتيره، إن الصداقة روح طيبة وخلق راقٍ، إن شاعت في المجتمع أوجدت تراحم وترابط ومودة بين أفراده، وبالتالي تراجعت الأحقاد والكراهية والمنازعات. في طريق صراعنا مع عدونا الإسرائيلي نحتاج بجانب السلاح إلى منظومة من القيم الدينية والأخلاقية، السلاح يُؤدي دوره، ومن خلفه قيم الترابط والأخوة تحمي المجتمع والفرد من شرّ الفتنة والتمزق.

قيمة الصدق

الصدق، وهو فضيلة من أعظم ما يتصف بها الإنسان في العموم، والمسلم على الخصوص، وهي في اللغة ضد الكذب، وفيٌ لا يخون، وفي اصطلاح العلماء الصدق من أفضل الصفات الإنسانية على الإطلاق، وصاحبها مواطن صالح نافع لنفسه ومجتمعه، وهي أساس لقيام علاقات اجتماعية قوية بين الأفراد والمجتمعات، وعلاقتها بالقول وبالفعل سواء بسواء، فكما أن الكلام يكون صادقاً، فكذلك العمل يكون صادقاً إن أتقنه صاحبه وأخلص فيه.

وقيمة الصدق دعا إليها الإسلام وكل الأديان الأخرى، سماوية أو أرضية، قال تعالى: { **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ .. (الأحزاب:٢٤)** }، وقال تعالى: { **قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)** المائدة}، ومنه حديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (عليكم بالصدق

فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً). (البخاري/٦٠٩٤)، فالرجل الصادق لبنة صالحة في بناء المجتمع الإنساني، تستقيم به حياة المجتمع، وتصلح به الحياة.

ولأهمية قيمة الصدق قرنها الله سبحانه وتعالى بالإيمان والتقوى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}، لهذا فإن الصدق يعتبر جماع كل خير، يُنجي صاحبه ويسمو به، وكلنا يعرف أن العرب كانت تُسمي محمداً قبل البعثة بالصادق الأمين، فكان له المنزلة العظيمة في قومه، وبالتالي كانت هذه الصفة سبباً في دخول الكثير من العرب في الإسلام. وقد تكررت كلمة الصدق ومشتقاتها في القرآن الكريم في أكثر من (١٣٠) موضعاً، ما بين ثناء وحث عليه، وترغيب فيه وتعظيم لأجره، وحُسن عاقبته وعلو منزلة صاحبه. لهذا كان من أبرز صفات الأنبياء والمرسلين الصدق، وفي المقابل وردت كلمة الكذب ومشتقاتها في القرآن الكريم في أكثر من (٢٨٢) موضعاً، ما بين التحريم والافتراء وسوء الخاتمة والخسران المبين والعذاب الأليم: {**قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ** (٦٩) يونس}، وفي المقابل: { **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ** (الأحزاب: ٢٤}.

والصدق لا يتعارض مع الترويح عن النفس والدعابة والمزاح، كما لا يتعارض مع المدح والتجمل في القول، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلّم: (إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً). (أحمد/٨٤٨١)، والصدق يعود على الفرد والمجتمع بفوائد كثيرة، فهو يُشيع الثقة والأمن والطمأنينة، ويحث على العمل الصادق والإنتاج الوفير، وهو دعامة لسلامة المجتمع من الحقد والبغضاء والشحناء، وهو عامل من أهم عوامل الرقي والتقدم والحضارة، وهو فوق كل ذلك سبب بركة في حياة الفرد والمجتمع: قال النبي صلى الله عليه وسلّم: (البيعان بالخيار ما لم يفترقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما)، وقول النبي أيضاً: (دع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة). (الترمذي/٢٥١٨)، والصدق يعمل على تفريج الهم والنجاة من الكرب، قال كعب بن مالك لرسول الله "إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت"، وبالصدق يرفع الله صاحبه لمرتبة الشهداء.

والصدق كما هو في الكلام هو في العمل، فمن الصدق في الكلام صدق النية، ومنه حفظ اللسان عن الكذب والغيبة وقول الزور والشهادة بالباطل، ومن الصدق في العمل فلا يغش ولا

يُغرر، ومنه صدق النية مع العمل قال تعالى: { **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)** الأحزاب}.

والإسلام لا يُبيح الكذب إلا في أضيق الحدود كما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلّم كما ترويه أم كلثوم: (ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها). (البخاري/٢٦٩٢).

فالصدق إذن مبدأ إنساني عظيم وشيمة خلقية سامية، ومن أعظم دواعي الصدق: العقل، لأنه يدعو صاحبه إلى فعل ما كان مستحسناً وترك ما كان مستقبحاً، كذلك من دواعي الصدق: الدين كما ذكرنا، فهو يأمر أتباعه بالصدق وينهى عن الكذب، وهو والعقل يتفقان في ذلك، ومن دواعيه أيضاً المروءة، لأنها تمنع من فعل المستكره والقبيح وحب الاشتهار، فلا يلحق صاحبه ندم.

وأخطر ما يكون الكذب ما كان على الله ورسوله، وعلى دين الله، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلّم: (إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار). (البخاري/١٢٤٢)، ويدخل في هذا كل ما ابتدعه الناس، خاصة

أو عامة، وأقحموه على دين الله من محدثات لا أصل لها في دين الله، كذلك من الكذب الغش والخداع في البيع والشراء، والصناعة، ودعايات الانتخابات وأمور السياسة والحكم، وكذب الإعلام السمعي والمرئي والمقروء، وما فيه من افتراءات، وقد حذرنا النبي من شهادة الزور، وقول الزور، وهو البضاعة الرائجة اليوم في عالمنا المشاهد.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "ونجاح الأمم في أداء رسالتها، يعود إلى جملة ما يقدمه بنوها من أعمال صادقة، فإن كانت ثروتها من صدق كبيرة، سبقت سبقاً بعيداً، وإلا سقطت في عرض الطريق، فإن التهريج والخبط، والادعاء والهزل، لا تغني فتيلاً عن أحد.

إننا نشاهد في حياتنا اليومية تراجعاً خطيراً للصدق، إن كان في القول أو كان في الفعل، ولا تحلو المجالس إلا بحكايات الكذب، في بيوتنا وشوارعنا ومدارسنا، ومجالسنا، وهذه آفة خطيرة مدمرة لحياة المجتمع ومحطمة لروابط العلاقات بينها، وأصبح الناس لا يخجلون من الكذب وترويجه، بل هم أقرب إلى تصديق الكاذب منهم إلى تصديق الصادق، كذلك الكذب والغش في العمل، فنادراً ما يخلص عامل في عمله، والتاجر في تجارته،

والمزارع في زراعته، والموظف في وظيفته، وكل هذا جلب على المجتمع المشاكل والتنافر والشك والريبة، فأصبح الواحد منا لا يثق في غيره إلا إن كان عليه رقيباً، وهذا من أخطر الخطر.

ونحن كشعب فلسطيني أحوج ما نكون إلى الصدق يشيع في حياتنا، خاصة وعامة، أفراداً وجماعات، الصدق في علاقة الزوج بزوجته، والزوجة بزوجها، والأب بأولاده، والأبناء بآبائهم، السياسي بقضية وطنه، والموظف مع المواطن، والحاكم مع شعبه، والمدرس مع طلابه، والطلاب مع معلميهم، نحن بحاجة إلى الصدق يتغلغل في حياتنا، فيضفي عليها روحاً من الشفافية والمحبة والتعاون والثقة، وبالتالي نكون مجتمع يحوز على ثقة الأمم فيناصروننا في صراعنا مع عدونا، ونيل حريتنا، فالصدق من أقرب الطرق إلى الفلاح والنجاح.

قيمة الأمن

الأمن، وهي قيمة ضرورية للحياة الإنسانية، فرداً أو جماعة، في اللغة ضد الخوف ويُقصد بها عدم توقع مكروه في الزمان، وبالأمن يطمئن الناس على دينهم وأموالهم وأعراضهم وأنفسهم، وبالتالي يتفرغون لتحقيق مصالحهم وإعلاء شأنهم والعيش في حياة كريمة.

والأمن مقصد الدين في شريعته، فلا قيام للعبادات والمعاملات دون تحقيق الأمن، ومما اتفق عليه العلماء أن شرط تحقيق الأمن شرط للتكليف، فكيف نقيم العبادة ونحن لا نأمن على أنفسنا ولا على أعراضنا ولا على أموالنا، كذلك حرص الإسلام على القيام على أمن الضرورات الخمس للإنسان: دينه وعرضه وماله ونفسه وعقله، ففي الصلاة تتغير هيئتها من حال إلى حال إن فقدنا شرط الأمن، والحج يُشترط لوجوبه أمن الطريق حتى تتحقق الاستطاعة، وهكذا في المعاملات المالية وغيرها.

والأمن من أعظم ما أنعم الله به على الإنسان في هذه الحياة، والتي بدونها لا يمكن أن يشعر بالطمأنينة، أو أن ينعم

بالاستقرار، وبالتالي لن يشعر بالهدوء، كل هذا مرتبط ارتباطاً كبيراً بأمن الإنسان على حقوقه الإنسانية الأساسية، لهذا جاءت الأديان ونُظمت الشرائع، ووضعت القوانين لضمان هذا الحق، الذي بوجوده يرتقي الإنسان وينهض بنفسه ومجتمعه، فيكون الإبداع وتكون الحضارة.

ولقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بما أطلق عليه المفكرون الإسلاميون بالضرورات الخمس، والتي هي مقاصد أساسية للشريعة الإسلامية، كما سبق ذكره، حفظ النفس والدين والعقل والمال والنسل، ولا قيمة لحياة الإنسان إن لم يكن آمناً على نفسه وحياته، وكذلك على عقيدته ودينه، وعقله الذي يفكر ويدبر به أمور حياته، وماله وممتلكاته، وأهله وأسرته، وهذه كلها هي مجمل حياة الإنسان في الدنيا، لهذا ركز القرآن الكريم على قيمة الأمن، والتي وردت في مواضع عدة كلها دعوة صريحة إلى العمل من أجل استتباب الأمن، وتحصيل السلم ونشر معالم الأخوة والتعاون، والإسلام لم يجعل ذلك مجرد قواعد فكرية نظرية، بل عمل على ترسيخها واقعاً في حياة الناس، أفراداً وجماعات، وذلك من خلال النيات الصالحة والدوافع الخيرية والنزوع الدائم والطوعي إلى الأمن والسلام، وتدعيم الألفة والطمأنينة.

والإسلام في تثبيته لقواعد الأمن في المجتمع يعتمد اعتماداً كلياً على الإيمان والعقيدة: {فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف}، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون). (البخاري/٦٩٤٣)، فالمتابع للنصوص الشرعية والمبادئ الإسلامية والقواعد الكلية والأحكام الفقهية يظهر له بالدليل والبرهان والمنطق والعقل والواقع والتجربة عظمة الوظيفة التي يؤديها الإيمان في حياة الإنسان، فرداً أو جماعة، ومردوده الإيجابي على الأمن المجتمعي، فلا شيء يوازي الإيمان، والأخلاق والقيم والرقابة الإلهية، يهتدي من خلالها الناس، وتستقر نفوسهم وينعمون بالسعادة في الدنيا من خلال أمنهم وسلامهم.

إن أمن الإنسان على نفسه يعني عدم الاعتداء عليها من أي جهة كانت، فرداً أو جماعة، وقد صانها الدين صيانة كاملة: { **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** (المائدة:٣٢)}، وليس القتل فقط، بل كل عمل يهدد النفس من تخويف أو تهديد أو ترويع، وهذه القيم تتناول الإنسان حياً وميتاً.

وكذلك الأمن على الدين والعقيدة معناه عدم جواز إرغام أحد على الدخول في دين من الأديان أو الخروج منه: { **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** (البقرة:٢٥٦)}، وإلا نتج منافقون وليس مؤمنون.

ومنه الأمن على العقل لضمان أداء وظيفته المتمثلة في التفكير والتحليل والاستنباط، فلا يجوز إعاقته عن عمله، أو تعريضه للمخاطر الضارة به، مادية أو معنوية وفكرية، مخدرات أو منشطات أو أفكار ومبادئ وفلسفات فاسدة، أو تقليد أعمى للآباء، والمشايخ والعلماء.

أيضاً الأمن على المال حماية له من الاعتداء عليه بالغصب أو السرقة أو الغش والخداع، والمال هنا ليس فقط المال الشخصي، بل يدخل فيه المال العام، فحرمته أشد لأن من يسرق المال العام كأنما يسرق المجتمع كله وليس فرداً واحداً.

ومن هنا ينتقل الأمن إلى الأسرة والأهل، وصيانتها من تعدي الآخرين عليها بأي شكل من أشكال التعدي المادي أو المعنوي، لهذا جاء حديث النبي صلى الله عليه وسلّم واضحاً: (كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه). (سبق تخريجه).

ويخلص الإسلام من هذا كله إلى أن يوفر للإنسان الطمأنينة والاستقرار في حياته، ليتيح له فرصة العمل والإنتاج والإبداع في شتى مجالات الحياة بما يتفق مع مواهبه وقدراته ومؤهلاته. ومن أجل فرض الأمن في المجتمع أوجب الإسلام على السلطة القائمة منع الأشرار والمفسدين من ممارسة شرهم وفسادهم، ومحاربة كل أشكال الخطر الذي يهدد المجتمع من تجارة المخدرات والخمور، والدعارة، ونشر أفكار التطرف والتشدد، والفكر المنحرف سياسياً وفلسفياً وأخلاقياً ودينياً، وقطع الطريق أمام كل من تسول له نفسه زعزعة أمن واستقرار المجتمع.

إن قيمة الأمن قيمة عامة وشاملة، تشمل المجتمع كله بكل أطيافه الدينية والعرقية والفكرية والثقافية، فهي لا تقف عند جنس دون جنس، ولا لون دون لون، لا تفرق بين عربي أو أعجمي، صغير أو كبير، ومما يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلّم كان ذات يوم جالساً مع صحابته فمرت من أمامهم جنازة، فقام النبي واقفاً احتراماً للميت، فقال له بعض الصحابة إنها جنازة يهودي، فرد قائلاً: أليست نفساً، هذا هو منطلق الإسلام في النظر لقيمة الأمن، هو أمن للجميع لا فرق بين إنسان وإنسان، فالكل يتمتع بالصفة الإنسانية، والكل له حق الحياة ما دام لا يشكل

خطراً على غيره، والأمن علاقته تضامنية ما بين الفرد والجماعة، فكلما حرص الفرد على تأدية وظيفته وحرص على أمن غيره، كلما بادله الآخرون هذا الأمن بأمن مقابل، واذا شكل خطراً على أمن الناس بلا شك سيشكل الناس خطراً على أمنه.

ونحن كشعب فلسطيني في ظل الاحتلال الإسرائيلي، وفي ظل الحصار الذي يعانيه شعبنا، نحن أكثر حاجة إلى نشر الأمن في حياة الناس أفراداً وجماعات، فالزوج والزوجة والأبناء بحاجة إلى الشعور بالأمن داخل الأسرة، والجار بحاجة إلى الأمن في علاقته مع جاره، كذلك الموظف والعامل، كذلك رجل الأمن، كل أفراد المجتمع بحاجة إلى أن يشعر بالأمن حتى يُعطي الإنسان ما عليه من واجب، ويعمل على تقدم المجتمع ورقيه. إن الأمن بالنسبة للمواطن الفلسطيني ضرورة من ضرورات حياته فهو الذي يجعله أكثر صموداً وتحدياً للعدو الإسرائيلي، وبالتالي قدرة على مواجهته ومقاومته.

قيمة الدين والتدين

الدين والتدين، وهي قيمة أساسية لازمت الإنسان من بدايات وجوده الأول على ظهر الأرض، فهي قديمة قدم الحياة الإنسانية، لأن الدين حاجة من حاجات النفس الإنسانية الفطرية، فهو مشوق بفطرته إلى اعتناق عقيدة يدين بها، ويسير على هديها حتى لو كانت فكرة بشرية، وعقيدة طبيعية.

والدين في اللغة اسم عام يطلق على معان متعددة منها: الملك والسلطان والقهر والطاعة والقضاء والعادة والمذهب والشريعة والملة، والسيرة والحساب والتعبد والخضوع. والديان اسم لله تعالى ومعناه الحكم والقاضي وهو بمعنى قهرهم على الطاعة.

وقد وردت لفظة الدين بمشتقاتها في القرآن الكريم في أكثر من (٩٠) آية، بمعانيها المتعددة، ومعنى الدين عند أهل العلم هو "وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات"، والإنسان بحاجة إلى الدين والتدين لأن العقل قاصر عن إدراك كل أسرار هذا الكون، وعن التفريق بين الخير والشر، وبين الحلال والحرام، كذلك قيادة البشرية إلى

الطريق الصواب دون خلافات وصراعات، والتخفيف من حدة الصراع بين البشر، وبيان أن هذه الحياة ليست هي المصير النهائي للإنسان، بل هناك عالم آخر فيه الديمومة والأبدية، وفيها النعيم والمستقر، بالإضافة إلى أن الدين هو الذي يُعرّف الإنسان بواجباته وبالغاية التي وجد من أجلها.

وحاجة الإنسان للدين حاجة مستمرة، قديماً وحديثاً، بل ربما هو الآن أكثر احتياجاً للدين عمن قبله، فقد أثبتت الأزمة الشاملة التي يعاني منها العالم اليوم بسبب طغيان المادية على حياتهم، وافلاس التقدم الصناعي والعلمي عن تحقيق السعادة، والتمييز بين الخير والشر، والحروب والصرعات الطاحنة، لهذا نرى هروب الكثير من أهل الغرب وغيره إلى البحث عن قيم أخلاقية ودينية يتحصنون بها من الضياع والهلاك والحيّرة، وهذا دليل على أن الدين ما زال بغية الإنسان وفعالاً لم يفقد فعاليته وتأثيره وفائدته.

إن قيمة الدين والتدين ضرورية للإنسان، لأنها مطلب فطري غريزي، وهو ضرورة حينما يفقد الإنسان بصيرته، وهو ضرورة حينما يحتاج إليه لحل مشكلات الحياة التي عجز العقل عن حلها، فالدين في الحقيقة هو الذي أنشأ الفكر والثقافة

والحضارة، والدين هو المنبع للقيم الروحية والمعنوية في حياة الإنسان، والدين خلافاً لكل النظريات الإصلاحية بجانب تركيزه على الجانب النظري يُركز على الجانب العملي والسلوكي والأخلاقي، وعلى النفس اللوامة (الضمير)، ولم يكن الدين في يوم من الأيام دعوة إلى الانعزال والانفصال عن واقع الحياة، بل التاريخ والواقع يشهدان على أن الدين محرك للطاقات وباعث للهمم ودافع للتقدم.

الدين لم يكن في يوم من الأيام مظاهر وشكليات، ومجرد أداء لبعض الطقوس والشعائر فقط، والذين فهموا الدين على أنه هكذا أخطأوا في فهمهم كثيراً، وفقدوا المعنى الحقيقي لقيمة الدين، فلم يكن في يوم التقوى مرتبط بطول اللحية، أو تقصير الثوب، أو طول السبحة، أو تصنع الورع والتشدد في المعاملة مع الناس والأهل، أو كثرة استعمال لفظ الجلالة. إن جوهر وقيمة الدين من خلال ترجمته إلى سلوك طيب مع الناس، والقدرة على العطاء والنفع، والدفع بعجلة الحياة إلى الأمام، كل ذلك من خلال قيم هذا الدين وأخلاقه.

إن الدين الحقيقي لا يولي الشكليات والمظاهر قيمة كبيرة، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم واضح في هذا: (فالله لا

ينظر إلى صوركم وأشكالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالك). (مسلم/٤٧٧٩)، ويوم أن رأى عمر بن الخطاب رجلاً مظهراً للتنسك متماوت في عبادته ضربه بعصاه وقال له: " لا تمت علينا ديننا أماتك الله".

من هنا لم يفرض الدين نوعاً معيناً أو شكلاً محدداً من اللباس يُفرّق به بين المتدين وغير المتدين، فما هو مطلوب من المسلم فقط هو اظهار قيم هذا الدين وأخلاقه، والالتزام بعقيدته وشريعته بغض النظر عن الشكل والهيئة، وهذا هو التدين الحقيقي الذي يتحقق سلوكاً مستقيماً في علاقة الإنسان مع نفسه أولاً، قال تعالى: {قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها}، ثم في علاقته مع الله خالقه، وهي علاقة سرية بين المرء وربه، لا يطلع عليها أحد إلا الله تعالى، لكنها تنعكس سلوكاً أخلاقياً مع تعاملاته مع الناس والحياة، هذه العلاقة سبب سعادته في الدنيا والآخرة، والتي تنعكس على العلاقة الثالثة وهي علاقته مع الناس، ومع البيئة المحيطة، مع الحياة بكل ما فيها من إنسان وحيوان ونبات، علاقة إيجابية صالحة، خيّرة، من هنا جاءت كلمة "الدين المعاملة"، وهي كلمة حق. لا قيمة للدين إن لم يتمثل سلوكاً أخلاقياً في العلاقة بين الناس.

وبقدر حاجة الإنسان للدين والتدين، إلا أننا نجد تراجعاً للدين الحق في حياة الناس، واستبداله بالتدين الشخصي، فالكثير طبعوا الدين بطابع عاداتهم وتقاليدهم، فأصبح الدين بدل كونه جملة من القيم الربانية الخالصة، أصبح صورة من عادات الناس وتقاليدهم، فاختلف الدين من بيئة لبيئة، ومن شيخ إلى شيخ، ومن جماعة إلى جماعة، ومن هنا نشأ الاختلاف والخلاف والفرقة، ونشبت الحروب والصراعات بين أتباع الدين الواحد في الأصل، وتفرقت الأمة رايات مختلفة وجماعات عدة، هذا ينتصر لدينه الجديد الذي اخترعه، والآخر كذلك، وتلاعب بعض الشيوخ والعلماء بدين الله تعالى، وجعلوه تبع لهواهم ومصالحهم، فانحرفوا بدين الله انحرافاً خطيراً، انعكس كل ذلك على المجتمع واستقراره وسلامه وتقدمه ووحدته وترابطه وقوته.

إذن التدين من ملازمات الإنسان، ولا يوجد في الكون إنسان غير متدين، نسمع أن فلان إنسان لا ديني، صحيح هو لا ديني من ناحية إتباعه لدين من الأديان المعروفة للناس، فهو لا يتبع اليهودية أو النصرانية أو الإسلام، أو أي دين من الأديان الأرضية الإنسانية الكثيرة والمتعددة، لكنه في نفس اللحظة يعبد

إلهاً خاصاً به أخترعه لنفسه، فرغباته أو هواه أو نزواته أو طموحه أصبح هو إلهه المعبود ودينه المقدس عنده.

ولأن الدين فطري طبعي، والإنسان لا يستطيع أن يستقل بمعرفة علوم الدين وأسراره لوحده، اعتماداً على العقل وحده، وبالتالي كان لزاماً عليه أن يعتمد على وسطاء يقومون بهذه المهمة، إنهم الأنبياء والرسل ورجال الدين، ومن هنا كان لرجال الدين المكانة والقداسة والهالة الكبيرة والعظيمة، والتي تختلف الشعوب بالنظر إليها حسب الزمان والمكان، والمستوى الفكري والثقافي والعلمي لهؤلاء الأفراد أو الشعوب، ومن الناحية الأخرى ما يقوم به بعض رجال الدين من صناعة هالة من القداسة حول أنفسهم حتى تتم لهم السيطرة والتحكم فيمن حولهم من الأتباع.

إن الدين كله مهما تعددت مصادره (سماوي أو أرضي)، ومهما تعددت راياته (يهودي أو نصراني أو إسلامي)، (بوذي أو هندوسي أو طوطمي)، كله يحمل بين طياته قيم الخير والأمن والعدل والرحمة والمحبة، فإن تخلى عن أي واحدة منها؛ اعلم يقيناً أنه لم يعد هو دين الله، إنما هو دين اخترعه الأحبار والرهبان وأصحاب العمائم، ليصدوا عن دين الله الحق، وليزيفوا على شعوبهم، وليجعلوا من أنفسهم المشرّعون والأرباب الجدد.

يوم أن تجد الشيخ أو الراهب أو الكاهن يتخلى عن دعوة الحب والإخاء والتسامح والإنسانية، ويدعو لعبادته هو وتقديسه هو، يومها اعلم أن ما يدعو إليه ليس ديناً ربانياً، وليكن اسمه أي اسم فالأسماء لم تعد تعنينا كثيراً، فهؤلاء هم الذين حذرنا منهم رسول الله حينما وصفهم بأنهم دعاة على أبواب جهنم.

يوم أن يصعد الشيخ على المنبر ليسب مخالفيه، وليُشهّر بالآخرين، وليُجهّل كل من هو ليس من أتباعه، اعلم أن هذا ليس بشيخ إنما هو رجل دجال، وكاهن مجرم، وراهب مزَور.

إن قيمة الدين قيمة تجمع ولا تفرق، تسعد ولا تشقي، ترتقي بالإنسان في أخلاقه وسلوكه فتجعل منه معطاء على الدوام، خيّر في كل أحواله، يحرص على رضا الله والعمل للآخرة كما الدنيا، رحيم مبشر غير منفرّ، منتج صادق أمين، لا يأتي من ناحيته خوف ولا ضرر، لهذا نحن بحاجة إلى ترسيخ قيم الدين الصحيح في نفوس أولادنا وفي نفوس الأجيال الصاعدة، حتى تتربى على القيم الصحيحة، وتكون محصنة ضد الأفكار المنحرفة والضالة، المعلم والطبيب بحاجة للتدين الحق، والسياسي والإعلامي والتاجر والمزارع كلهم بحاجة للتدين الحق، الزوج

والزوجة والجيران كلهم بحاجة للتدين الحق، حتى ينعموا بحياة طيبة وآمنة وسعيدة.

ليس من الدين في شيء أن نُلقن ونعلم ونغرس في قلوب وعقول أتباعنا من السذج والفاشلين والعاقين لوالديهم ومرضى النفوس، أن نغرس فيهم الكراهية والبغضاء للآخرين، والغير كله للأسف آخرين. الدين الحق أن نعلمهم حب الآخرين واحترامهم، مهما اختلفوا معنا، وإلا كيف يكون الإنسان واصلاً، وليس الواصل كالمكافئ، وأين نحن من قول المسيح عليه السلام : أحب عدوك وادعو لمن يسئ إليك، لماذا لا نعلم أبناءنا أن الدنيا تسع الناس جميعاً، بكل ألوان الطيف الديني والفكري، وأن الحضارة تبنيها مجموعة العقول وتقادح الأفكار، وتشابك الأيدي، الأرض الآن يعيش عليها أكثر من ثمانية مليار إنسان، لا مكان فيها لمن يريد أن يعيش في الظلام، والانعزالية حاجباً نفسه عن النور، ودين الله الحق هو النور (**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** (النور:٣٥)).

ونحن في فلسطين أحوج البشر للدين والتدين الحق، لظروفنا الخاصة في مواجهة اليهود، فاليهود رغم كفرهم وإلحادهم في دينهم، ورغم حربهم الشرسة ضد الدين، إلا أنهم يحاربوننا حرباً دينية، ويعلنون رايات الدين في كل محفل ومناسبة، ويربطون

مصير دولتهم بقضايا الدين، نحن أحوج منهم في ذلك، فلا القومية أو العلمانية أو الشيوعية واليسارية نفعت، لأنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ديننا الحق في مواجهة دينهم الباطل. نحن بحاجة إلى ترسيخ قيم الدين الصحيح في نفوس أولادنا، حتى نصنع منهم جيل التحرير، ولأن الأقصى والأرض المباركة لا يحررها إلا الأيدي المتوضئة.

قيمة الشكر

هي من القيم الجميلة ذات المردود الطيب والحسن، والشكر من صفات الله تعالى، والشاكر والشكور من أسمائه سبحانه: { **وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)**البقرة}، وقال تعالى: { **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)**الشورى}، والشكر اظهار نعمة المنعم، وهو أبلغ من الحمد في المعنى، وقد عرّفه العلماء بأنه عرفان الاحسان، وقيل الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، وقيل هو: "عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه"، وهو حالات عدة : شكر بالقلب وهو تصور النعمة، وشكر باللسان وهو الثناء على المنعم، وشكر بالجوارح وهو مكافأة بقدر استحقاقه. وعلاقة الشكر على ثلاثة أوجه: الأول: شكر الإنسان لما فوقه بالثناء والخوف والدعاء، والثاني: شكر الإنسان لنظيره ويكون بالمكافأة، والثالث: شكره لما هو دونه بالثواب والعطاء.

ومن اهتمام الإسلام بالشكر تكرار وجوده في القرآن الكريم سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلَّم، وكل الأنبياء اتصفوا بخُلق الشكر، فعن إبراهيم عليه السلام قال تعالى: { **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١)** النحل}، وعن نوح قال تعالى: { **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)** الإسراء}، وعن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم قال النبي: (أفلا أكون عبداً شكوراً). (البخاري/٤٨٣٦)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك). (صحيح ابن حبان/٢٠٢٠). ومن اهتمام النبي به دعوة أتباعه لشكر من أنعم عليهم بنعمة: (لا يشكر الله من لم يشكر الناس). (صحيح أبي داود/٤٨١١)، وقوله أيضاً: (اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال لنعمة إذا شُكرت ولا دوام لها إذا كُفرت). (الجواهر المجموعة/٥٣٩).

وقد ربط الإسلام بين شكر الناس على نعمهم، وبين شكر الله تعالى، وهذا دلالة على أهمية هذه القيمة في حياة الناس أفراداً وجماعات، فهي دعامة من دعامات التواصل وترسيخ العلاقة، وأساس من أسس التعاون والتضامن، وهي مما لا يكلف الناس

كبير عناء، فلا تحتاج لجهد عضلي وجسدي، ولا إلى انفاق مال أو ضياع وقت، إنما هي فقط كلمة، ولكن لها تأثيرها الكبير على السامع المشكور في حال تلفظها، ومردوداً سلبياً في حال عدم قولها والإعلان عنها، وأنا ما زلت أتذكر ذلك المشرف التربوي الذي عملتُ معه لمدة أربع سنوات كاملة، يعني ثماني زيارات ما سمعت منه خلالها كلمة طيبة، كيف أنني ما زلت أشعر بغصة في نفسي كلما تذكرت ذلك، وأتساءل ما المصلحة في هذه الغلظة والجلافة.

فالعقل والدين والخُلق الحسن، كلها تأمرنا أنه إذا أسدى إلينا شخص ما معروفاً، أو قدّم إلينا خدمة معينة قولاً أو فعلاً، الواجب يقتضي أن نقدم له الشكر على ذلك بالقول أو الفعل، حسب الموقف، وحتى ولو كان هذا العمل من ضمن مسؤولياته وواجباته، ومن ضمن ما أتذكره أنه في يوم من الأيام جاء عمال البطالة لتنظيف شارعنا الذي أسكن فيه، وكنت وقتها خارج للذهاب إلى عملي مبكراً، فلما رأيتهم طرحت عليهم السلام وتمنيت لهم العافية، ثم ناديت على ابني وطلبت منه أن يصنع إبريقاً من الشاي ويقدمه للعمال، وانصرفت ومرّت السنوات، وفي مناسبة لأحد الزملاء تقابلت مع أحد هؤلاء العمال، والذي لا أعرفه، فقام

أمام الجلوس بتعريفي بنفسه، ومن ثم ذكر الموقف القديم، كم كنت سعيداً وهو يتحدث، ليس لأنه يشكرني، بل لأنني استطعت أن أقدم شيئاً أسعدت به غيري.

إن الشكر يعني الاعتراف بالفضل لذوي الفضل، والثناء على المحسن بذكر إحسانه، وأعظم أنواع الشكر، شكر الله على نعمه الكثيرة، قال تعالى: { **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)** البقرة}، وقوله تعالى: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)**البقرة}، ويكون ذلك بالاعتراف بنعم الله والتحدث بها واستخدامها في طاعة الله. ومنه شكر الوالدين والإحسان إليهما: { **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)** لقمان}، وذلك بطاعتهما وبرهما والإحسان إليهما، والحرص على مرضاتهما وعدم اغضابهما. ومنه شكر الناس بتقدير معروفهم، والقيام بحقوقهم، وشكرهم على ما قدموه، لقول النبي صلى الله عليه وسلّم: (إن أشكر الناس لله أشكره للناس). (الترغيب للمنذري/٢/١٠٢)، وقد ربط النبي صلى الله عليه وسلّم بين شكر الناس وشكر الله لبيان مدى أهميته في تحقيق السلوك الحضاري الراقي في علاقة الناس بعضهم لبعض، ومن ضمن من يستحقون

الشكر المعلم والعلماء الذين يُعلمون الناس الخير، والذين أسهموا في تربية عقولهم، وصياغة أفكارهم وتزويدهم بالعلم والمعرفة، ولأن رسالة المعلم تقترب من رسالة الأنبياء، فيلزم بناءً عليه تقديرهم والدعاء لهم، والصدقة عنهم والتخلق بأخلاقهم، وما نشاهده أحياناً من سلبيات في علاقة بعض الطلاب بالمعلمين هو خارج عن قيمنا الدينية وأعرافنا وتقاليدنا.

ولقيمة الشكر فضل كبير ومردود عظيم على الشاكر والمشكور له، أفراداً وجماعات، فمن يتحلى بهذا الخلق يضمن المزيد من النعيم في الدنيا، والفوز بالجنة في الآخرة، قال تعالى: {لئن شكرتم لأزيدنكم}، ولهذا قيل: "كلما شكرت نعمة، تجدد لك بالشكر أعظم منها"، هذا في حق الله تعالى، وفي حق البشر؛ شكر النعمة يعمل على تواصلها واستمرارها، ويُشيع روح المحبة والرضا، ويزيد من التعاون والتضامن، ويُعطي المنعم دَفعة معنوية لزيادة إنعامه وفضله، والذي يجعله يشعر بثمرة فعله، لكن نكرانها وجحودها يجعله يراجع نفسه قبل أن يُقدم على فعل خير أو معروف.

وشكر المنعم لا يقلل من شأن الشاكر، بل بالعكس يُظهر مدى احترامه لنفسه ولغيره، وكم يملك من ثقة النفس وعلو الهمة،

ويُظهر كم هو إنسان حضاري صاحب نفسية سوية راقية، فهو يعرف كيف يُقدّر للناس أفضالهم، وكيف يجعلهم يستمرون في فعل الخير، قولاً أو فعلاً، كذلك للشكر أهمية خاصة في أنه يعمل على تقوية الروابط الإنسانية بين الناس، فمن يفعل خيراً ويرى مردوده في علاقته مع الناس لا يتأخر في فعل معروف غيره وهكذا.

وقيمة الشكر قيمة إنسانية عامة شاملة كغيرها من القيم الأخلاقية، فهي لا تختص بلغة أو جنس أو دين وثقافة، فالواجب شكر كل من يُقدّم خدمة أياً كان – ما لم يكن حربياً –، فالذين قدموا أرواحهم وأنفسهم وأموالهم خدمة لأوطانهم هم بحاجة للشكر والترحم عليهم، وتذكير الناس والأجيال الجديدة ببطولاتهم وأمجادهم، كذلك الأسرى في سجون العدو يحتاجون للشكر والعمل على تخليصهم وتحريرهم من قبضة عدوهم، كل ذلك مقابل المعاناة التي يعانونها، خدمة لوطنهم وشعبهم، والمعلم الذي يبذل الجهد المضني هو بحاجة لكلمة شكر وعرفان، والطبيب والموظف والشيخ، والوطن أيضاً شكره بمحبته والإخلاص له والعمل على تقدمه وحمايته من الأعداء المتربصين به.

إن الشكر هو وسيلة لبقاء النعمة، واستمرارها، والشاكر يجلب الخير لنفسه أولاً حين يشكر الله تعالى، أو يشكر الناس، لأنه بشكره يَنعم بمزيد من نعم الله تعالى عليه: { **وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** (٤٠) النمل}.

ونحن في فلسطين في أمس الحاجة لشيوع خلق الشكر بين الناس، لتزداد علاقاتنا وداً ومحبة، وليزداد التواصل والتراحم، وليشعر الذين قدموا لهذا الوطن تضحياتهم أنها لم تذهب سدى، ولن نخسر شيء حينما نقف مع أم الشهيد، أو زوجة الشهيد، أو نلملم جراحات وآلام الذين حطمت آمالهم الجروب، كلمة طيبة، لمسة حنان، ابتسامة من القلب، مدّ اليد كل ذلك وغيره يفعل فعل السحر في النفوس، المعلم، الموظف، الطبيب، الممرض، الشرطي ورجل الأمن كل هؤلاء يحتاجون إلى كلمة شكر، واعتراف بالجميل، أمهاتنا، زوجاتنا، نساؤنا كلهن بحاجة لكلمة شكر وقبلة على الجبين.

الشعوب والمنظمات التي وقفت معنا تساندنا ضد الاحتلال وجرائمه، وقدموا لنا العون المادي والمعنوي، المتضامنين الذين تركوا أهلهم وأعمالهم وأمنهم، وعاشوا معنا الأوقات العصيبة، وقتل منهم من قتل، وجرح منهم الكثير، وتعرضوا للأذى على أيدي

المجرمين الإسرائيليين، الذين قاموا بالتظاهر في بلادهم احتجاجاً لما يحدث لنا، كل هؤلاء وغيرهم يستحقون منا الشكر والعرفان، وأن نحفظ لهم هذه الأعمال العظيمة في ذاكرتنا.

قيمة الانتماء

وهي قيمة عملية أكثر من كونها نظرية، ومعنى الانتماء هو الانتساب إلى القبيلة، أو الموطن أو الدولة المعينة، وعرّفه علماء النفس بأنه انتساب الفرد إلى جماعة معينة، أو حزب معين أو نادٍ معين أو مؤسسة عمل معينة، فهو عضو فيها أو واحد منها له ما لأفرادها من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات. والانتماء هنا انتماء شكلي لا قلبي، وهذا يدخل في التفريق بين الولاء والانتماء، فالولاء أشمل من الانتماء. وللانتماء أشكال متعددة عند الفرد الواحد، فهو ينتمي لوطن معين، وفي داخله ينتمي لمؤسسة معينة، وأسرة معينة، ومهنة معينة، ودين معين.

والانتماء في أساسه ينبني على علاقة نفعية متبادلة بين الجهتين، المنتمي والمنتمى إليه، فالدولة والوطن لأنه صاحب فضل على الإنسان لهذا يرى المواطن واجب الانتماء له، حفظاً لذاك الجميل، ورداً لهذا الديّن والفضل. وحينما يُذكر الانتماء فأول ما يذهب إليه العقل هو الوطن والأرض التي منها وعليها خرج

الإنسان، فالوطن له في القلوب منزلة عظيمة، ومكانة عالية وفريدة، فهو كما قلت المكان الذي ولدنا فيه وعشنا على ترابه، ونعمنا بخيره، وتنفسنا هواه، وهو الذي يحمل أجمل الذكريات، ذكريات الطفولة والشباب والكهولة وحتى آخر لحظة في حياتنا، وغالباً لا يرضى الإنسان عنه بديلاً مهما كانت الأحوال ومهما تعرض الوطن للمحن والأزمات.

والوطن له في قلب كل مواطن عاقل حب لا يدانيه حب، وإخلاص لا يماثله إخلاص، وصبر على الآلام لا يحتملها الإنسان في موطن غير وطنه، لهذا كان الشاعر حافظ إبراهيم في غاية الصدق لما أنشد قائلاً:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة   وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام

ولا شيء يبكي الإنسان على فراقه مثل الوطن، لأنه لما يبتعد عنه يشعر أنه يقلع من جذوره، ينقصه شيء كبير، ينقصه الحنان والدفيء، ينقصه العزة والكرامة، وليس أصدق مثالاً من موقف النبي محمداً صلى الله عليه وسلّم يوم هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، مكة التي آذته وكفرت بدعوته، وعذبت أصحابه، وأخرجته، وقف قريباً منها يخاطبها وكأنها تسمعه: (والله إنك أحب أرض الله إلى نفسي، ولولا أن قومك

أخرجوني منك ما خرجت). (صحيح الترمذي/٣٩٢٥)، شعور ملئ بالحب والإعزاز مع أنه ممزوج بالألم والحزن، وكان أثناء وجوده في المدينة يتلفت في وجهه تجاه مكة، الأرض التي عاش أيامه الجميلة فيها حتى استجاب الله لرغبته: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ..(البقرة:١٤٤}**، فارتاحت نفس النبي صلى الله عليه وسلّم، فلما عاد إلى مكة منتصراً فاتحاً عفا عن كل من أساء إليه، لأنه الرحمة المهداة.

إن قيمة الانتماء للوطن أو القبيلة أو الجماعة يجعل الإنسان يهب للدفاع عن وطنه أو جماعته، ويبذل الغالي والنفيس؛ من نفس ودم ومال ووقت فداءً ودفاعاً عنه في مواجهة الأعداء، وهذا الانتماء ليس كلمة تقال أو أغنية تُردد في المناسبات، إنما هو شعور وإحساس يعتمل في النفس، وهو ترجمة حقيقية لصدق العلاقة بين المنتمي والمنتمى إليه، ترتفع من خلالها قيمة الإنسان والوطن.

قيمة الانتماء للوطن أو لأي شيء ليست قيمة نظرية كلامية، إنما هي في الحقيقة قيمة عملية سلوكية تمارس في كل الوقت، وفي كل مكان، وفي كل حال، وعلى كل المستويات،

الفردية والجماعية، قيمة الانتماء أن تكون مخلصاً في عملك أياً كان نوع هذا العمل، الانتماء في الأب والأم والابن، قيمة الانتماء أن تكون معلماً أو طبيباً أو موظفاً مخلصاً، جندي أو سياسي، تاجر أو مزارع، عامل أو صانع، قيمة الانتماء للوطن أن أقدم هذا الوطن على مصلحتي الخاصة. وفي الإسلام إذا تعارضت مصلحتان خاصة وعامة قدمنا العامة على الخاصة، الانتماء للوطن أن أكون طالباً مخلصاً لمدرستي، أحافظ على أثاثها وجدرانها وأدواتها، أحافظ على وقت المعلم فلا أهدره في مشاغبات وأمور لا علاقة لها بالدرس، الانتماء يعني صدق العلاقة بين المواطن وبين تراب هذا الوطن الذي بعزته أكون عزيزاً، واسألوا أهل فلسطين عن مكانة الانتماء الصادق للوطن.

فلسطين حكاية كل الأزمان، وحكاية كل الحكايات، لا مكان على ظهر الأرض تعرض لما تعرضت له فلسطين، من ظلم على مدار تاريخ البشرية المعروف، في مقابل هذا الظلم واجه الأحرار من أبنائه هذا الظلم المتكرر والمتواصل واجهوه بمئات الآلاف من القتلى، وأضعافهم من الجرحى، وأنهار من الدم الذكي، كل ذلك دفاعاً عنه، وكلما انتهى احتلال تجدد احتلال آخر، والكل له مطمع في هذه الأرض المقدسة، أرض الأنبياء

والمرسلين، أرض المجد والعراقة، إن انتماء أبناء فلسطين لفلسطين جعلهم لا يفكرون في ذواتهم في مقابل حرية أرضهم واستقلالها، والمحافظة على هيبتها وحرمتها، وصراعنا مع اليهود خلال المائة عام الماضية، والمستمر إلى الآن صورة حية وشاهدة على صدق الانتماء والبطولة والشجاعة لشعبنا أبهرت العالم، وأوقفت تمدد المشروع الصهيوني الإسرائيلي.

صحيح أن روح الانتماء يعتريها أحياناً تراجع سلبي، بسبب قسوة الظروف، وخيانة الصديق والأخ، وتغيير أولويات المشروع الحاكم (السلطة). وأحياناً نسمع من المواطن كلمات مؤلمة تشعرك بالخوف، لكنها كلمات في الحقيقة على اللسان وليست في الغالب نابعة من القلب، ما أسرع أن يظهر هذا المواطن على حقيقته الأصيلة والطيبة والمنتمية للوطن.

مطلوب منا أن نربي أولادنا على صدق الانتماء للوطن، للبيت والشارع والحي والمدرسة، لمكان العمل والتنزه، أن يحافظ على مدرسته وعيادته ومسجده وكنيسته، على الشيء العام كأنه خاص، أن يحرص على المحافظة على ممتلكات الدولة والمجتمع دون عبث أو فساد، حينما نغادر الوطن يجب أن نكون نماذج محترمة وصور طيبة لشعبنا ووطننا وديننا وهويتنا. الانتماء أن

يحب ويحترم كل واحد منا الآخر، مهما اختلفنا في الدين أو الفكر والثقافة، والانتماء الحزبي والسياسي والرياضي.

إن قيمة الانتماء قيمة عامة شاملة، تشمل الوطن كله، شرقه وغربه، شماله وجنوبه، اعراقه وأجناسه، لغاته، ورايات وشعارات أبنائه، ومن هذه النظرة العامة ننطلق للانتماء الأكبر، الانتماء للإنسانية، فتكون علاقتي بالإنسان كونه إنسان كرّمه الله مع اختلاف الأديان واللغات والأعراق، أنا إنسان وهو إنسان، هو أخي وأنا أخوه في الإنسان: (كلكم لآدم وآدم من تراب). (الترمذي/٣٩٥٥).

ونحن في فلسطين نعيش أعظم وأصدق صور الانتماء في العالم، حب لهذه الأرض لا يضاهيه حباً، وإخلاص لا يماثله إخلاص، صمودنا على أرضنا وتضحياتنا من أجلها أبهرت العدو والصديق، لكن وكما يقولون "الحلو ما يكملش"، يعكر صفو هذه الصور الجميلة بعض التصرفات وللأسف من مسؤولين كبار تجعل البعض في حيّرة من أمره، وما أوصلوا شعبنا إليه من انقسام وضياع للمشروع الوطني الحقيقي، وما يحدث من مناكفات هنا وهناك، وتقديم لمصالح الحزب والتنظيم على مصلحة الوطن

والقضية والشعب، نحن بحاجة لأن يكون الوطن هو الرقم واحد في قائمة الأولويات.

قيمة البشاشة

البشاشة، وهي قيمة إنسانية أخلاقية عملية، وهي بمعنى طلاقة الوجه والابتسام والسرور، ورجل باش الوجه أي طلق، ومن معاني البَشِّ: اللُّطف في المسألة، والإقبال على الرجل، وقيل: هو أن يضحك له، ويلقاه لقاءً جميلًا. وقيل البَشُّ: فرح الصَّديق بالصَّديق. ومعنى البَشَاشَة عند العلماء طلاقة الوجه، مع الفرح، والتَّبسُّم، وحسن الإقبال، واللُّطف في المسألة، أما طلاقة الوجه: وهو إشراقه حين مقابلة الخلق، وهو ضدُّ العبوس.

الفرق بين البِشْر والهشاشة والبَشَاشَة: هناك فرق بين البِشْر والهشاشة والبَشَاشَة، فالبِشْر أول ما يظهر من السُّرور بلُقي من يلقاك، ومنه البِشَارة، وهي أول ما يصل إليك من الخبر السَّار، فإذا وصل إليك ثانياً، لم يُسَمَّ بشارة، ولهذا قالت الفقهاء: إنَّ من قال: من بشَّرني بمولود من عبيدي فهو حرٌّ. أنه يُعتق أول من يخبره بذلك. وفي المثل: البِشْر علم من أعلام النَّجح.

والهَشَاشَة هي الخفَّة للمعروف، وقد هَشِشْت يا هذا، بكسر الشين، وهو من قولك: شيء هَشٌّ، إذا كان سهل التَّناول، فإذا كان الرَّجل سهل العطاء، قيل: هو هَشٌّ بَيِّنُ الهَشَاشَة.

والبَشَاشَة: إظهار السُّرور بمن تلقاه، وسواء كان أولًا أو أخيراً.

من الأشياء اللافتة للنظر أن الإسلام لم تتوقف توجيهاته ومبادئه عند القضايا المادية والعملية، من بيع وشراء، وزواج وطلاق، وعبادة وغيرها، إنما تخطاها ليغوص في أعماق التهذيب الخُلقي والنفسي، ولم يترك شاردة ولا واردة في هذا المجال إلا وأدلى فيه بدلوه، وقال فيه قوله الفصل، ومنها العلاقات الإنسانية العابرة، اللقاء العام للناس، أفراداً وجماعات، فرسم للفرد خيوط سلوكه حينما يقابل أخاه الإنسان، ومباشرة يقابلنا حديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (تبسمك في وجه أخيك صدقة). (الترمذي/١٩٥٦)، وقوله: (لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق). (مسلم/٢٦٢٦)، فالنبي صلى الله عليه وسلّم يحث على الابتسامة والبشاشة في وجوه الناس، لما لهذا الأمر البسيط من أثر كبير على نفسياتهم، ولما له من تأثير كبير على بناء علاقة طيبة وإيجابية بين الناس، فالابتسامة وبشاشة

الوجه تعني أن صاحبها منفتح على الناس، مقبل عليهم، غير متكبر ومتعالٍ.

والابتسامة في وجوه الناس وخصوصاً في بداية اليوم، لا تكلف صاحبها جهداً عضلياً ولا جهداً عقلياً، ولا مادياً، ولكن مردودها النفسي على الناس أعظم من مردود نفقة المال، وبذل الجهد، لما يترتب عليها من مردود إيجابي وعظيم، يجعل الإنسان يُقبل على العمل بنفس وروح نشطة وبهمة عالية، مما يؤثر على زيادة الإنتاج وجودته، وبالتالي يُسهم في رقي المجتمع وتقدمه، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم صريح في هذا: **(كلٌّ معروف صدقة، وإنَّ من المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْق).** (البخاري/٦٠٢١)، أذكر أنني كنت ذاهباً في يوم من الأيام إلى عملي، وركبت سيارة أجرة وفي الطريق توقف السائق لتركب معنا فتاة في منتصف العشريات من العمر، وبدأت تتجاذب أطراف الحديث مع السائق، عرفت من سياق حديثها أنها تعمل في موظفة في البلدية، وكان حديث الفتاة مهذباً ومنظماً، فما كان مني قبل نزولي من السيارة إلا أن شكرتها على تهذب أخلاقها، ولطف كلامها، وحسن أخلاقها، وبعد عدة أيام ركبت مع نفس السائق، وبعد لحظات بدأ السائق يُرحب بي ثم قال هل تذكر الفتاة

التي ركبت معنا من عدة أيام، قلت له نعم أتذكرها، قال هي قريبتي، قابلتها من يومين وإذا بها تقول لي إن اليوم الذي ركبت فيه معكم السيارة وكان معنا الأستاذ (...)، والذي شكرني وقال لي كلام طيب، كان هذا اليوم حتى نهايته من أجمل الأيام، عملت فيه بجد ونشاط وهمة عالية، وأن كلمات الأستاذ كان لها أثر السحر عليّ، فشكرت له ولها.

من هنا تأتي أهمية الابتسامة وأهمية الكلمة الطيبة، وليس معنى ذلك أن يبتذل المرؤ نفسه، وألا يقوم بتوزيع ابتساماته هنا وهناك، وإلا فربما يقع في إشكاليات مع البعض من المارة أو الناس، وخصوصاً النساء، فعليه أن يكون حذراً من هذا الأمر، فليس كل الناس عندها القدرة على استيعاب سلوك الآخرين.

وفي مقابل قيمة البشاشة والابتسامة، التجهم والعبوس، وتصنع الجدية، والبعض يظن خطأً أن ذلك من أخلاق الدين، ومن الوقار وتقوى الله، ومن أسباب وعوامل الهيبة وقوة الشخصية، وهذا الخطأ يقع فيه على الخصوص العاملون في مجال الدعوة من علماء ومشايخ، الواحد منهم يمشي ويتحرك كأنه في طابور عسكري، وجهه إلى الأمام جامد، متحجرّ، وإن نظر إلى الناس نظر إليهم عابس الوجه، مقضب الجبين، ترتسم على

وجهه علامات الغضب وعدم الراحة، إن تكلم استعمل الألفاظ الجامدة، وهذا ما نشاهده أحياناً كثيرة في الحوارات المرئية، والرجل المقابل مرح، سهل سلسل مبتسم، لكن شيخنا عبوس جامد في جلسته، وكأنه يتربص بعدو له، للأسف هذا الشخص يسئ لنفسه أولاً لأنه يسبب نفور الناس عنه، ويسئ ثانياً للناس لأنه يتسبب لهم بالكآبة وضيق النفس ويجعلهم ينصرفون عنه فلا يقبلون نصحه وموعظته، ثم ثالثاً يسئ للفكرة التي يحملها، فقد تكون فكرة رائعة وجميلة لكن سلوكه وهيئته كانا عائقين في قبول الناس لها، لهذا قال الله عن محمد عليه الصلاة والسلام: {ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك}، ومن هنا يأتي خطورة هؤلاء الأشخاص في تربية الناشئة على مثل هذه الأخلاق، فيتربى الجيل على قسوة الطبع وغلظة السلوك، أقرب للانعزال منه للائتلاف والتعاون، وبالتالي تتقطع أوصال المجتمع وتتمزق علاقاته.

قال ابن القيِّم: "طلاقة الوجه والبِشْر المحمود وسط بين التَّعبيس والتَّقطيب، وتصعير الخدِّ، وطيِّ البِشْر عن البَشَر، وبين الاسترسال مع كلِّ أحد بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أنَّ الانحراف الأوَّل يوقع الوحشة، والبغضة، والنُّفرة في قلوب الخَلْق، وصاحب الخُلُق الوسط: مهيب محبوب،

عزيز جانبه، حبيب لقاؤه. وفي صفة نبيِّنا: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه عشرة أحبَّه".

إن **أحوج الناس لقيمة البشاشة** وطلاقة الوجه هم الذين يعملون في مجالات العلاقات العامة، وقد عرفت كثير من المجتمعات الحديثة أهمية وقيمة هذا العلم، فبدأت بتدريسه في الجامعات والمعاهد العليا، وتعقد الندوات والأيام الدراسية تحت مسمى (التنمية البشرية)، لما له من المردود على نجاح العمل وتقدمه وزيادة الإنتاج.

والصحابة رضى الله عنهم يحدثونا أنهم ما رأوا النبي صلى الله عليه وسلّم في يوم عابس الوجه، مقضب الجبين، متجهما، بل كان دائماً باشاً مبشراً ميسراً غير منفرّ، يخالط الناس في حياتهم اليومية، أفراحهم وأحزانهم، يمازحهم، وما أغضب في يوم من الأيام صغيراً أو كبيرا، رجلاً أو امرأة، فقد كان سهل التعامل، حسن الخلق، لين الجانب، يروي أنس بن مالك رضي الله عنه وقد خدم النبي عشر سنين فما عبس النبي في وجهه أبداً، وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها، أن النبي كان في بيته ألين الناس، مبتسماً ضحوكاً، يرحم اليتيم ويعطف على الطفل الصغير، وحواره مع الأقرع بن حابس حينما رأى الحسن والحسين

يلعبان حول النبي ويعتليان كتفه، والنبي يقبلهما، قال له حابس إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم واحداً، فرد عليه النبي قائلاً: (من لا يرحم لا يُرحم). (البخاري/٥٩٩٧).

قال ابن حبان: "البَشَاشَة إدام العلماء، وسجيَّة الحكماء؛ لأنَّ البِشْر يطفئ نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي".

إن قيمة البشاشة قيمة عامة إنسانية اجتماعية، علاقتها بالبشر جميعاً، ومع كون الناس مختلفين في لغاتهم وأعراقهم، إلا أن الله جعل فيهم القدرة والاستعداد للتعايش الإيجابي، والحياة في أمن وسلام: { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)**الحجرات}، هذا التعارف يكون من خلال الاستعداد النفسي والروحي، والقدرة على قبول الآخر، والتعامل معه، ومن ضمن ذلك بشاشة الوجه وطلاقته، وتعابير الوجه، وكثيراً ما تبدأ العلاقات الطيبة بين الناس، ويتم التعارف بينهم من خلال النظرة الأولى، والابتسامة التي تصاحبها، وهذا ليس معناه التبذل الأخلاقي، والخروج عن أخلاق الإسلام ومبادئه، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم واضح في هذا: (الأرواح جنود مجندة ما

تعارف منه ائتلف، وما تناكر منها اختلف). (البخاري/٣٣٣٦)، ومن هنا يقوم المجتمع في علاقاته بين أفراده على المحبة والمودة والتعاون في الخير، فيأمن كل واحد على نفسه وماله وعرضه، ويسبب ذلك في نهضة الأمة وتقدمها وقوتها وهيبتها.

ونحن في فلسطين مع كل ظروفنا الصعبة نفسياً واجتماعياً ومادياً وسياسياً، نتيجة الاحتلال والحصار الخانق، تبدلت النفوس، وتغيرت الطباع، ففرضت علينا تصرفات وسلوكيات ما بين آبائنا وأجدادنا، الحروب والقتل والدمار والتشرد، الفقر والحاجة كل ذلك وغيره حرم كثير من الناس من أشياء كثيرة منها الابتسامة وبشاشة الوجه وطلاقته، حرمهم اللين في المعشر والمعاملة، وجعلهم أقرب للغلظة منهم للطافة، والقسوة منهم للين، وهم في جانب كبير من ذلك معذورون، فكيف تطلب ممن هُدم بيته أو قتل أحد أفراد عائلته، أو العامل الذي لا يجد عملاً، والخريج الذي لا يجد وظيفة، أو الموظف الذي لا يتقاضى راتباً، أو المريض الذى لا يحد دواءً أو علاجاً، كيف لك أن تطلب منهم أن يبتسموا، أن يضحكوا، أن يبشوا في وجوه غيرهم، وفاقد الشيء لا يُعطيه، لكن مع كل هذا علينا أن نتحايل على كل ظروفنا

الصعبة، وأن نخلق من المستحيل واقعاً، حتى نستطيع الاستمرار في هذه الحياة، وفوق هذه الأرض.

قيمة الأمل

الأمل، وهو من الرجاء والترقب، وأكثر استعماله فيما يستعد حصوله، وعرّفه العلماء بأنه تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل، وقيل معناه: توقع الخير عمن بيده الخير. وضد الأمل اليأس وهو انقطاع أمل الإنسان ورجاؤه من حدوث شيء ما، وقد ورد الأمل في القرآن الكريم في عدة مواضع منها: {المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً}، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (يهرم ابن آدم ويشب فيه خصلتان: الحرص على المال، وطول الأمل). (البخاري/١٠٤٧)، والأمل واليأس قوتان في النفس الإنسانية تتجاذبان مشاعره وسلوكياته، بعضهم يزيد عنده قوة الأمل، والآخر يزيد عنده نسبة اليأس.

ورد الأمل في القرآن الكريم على اتجاهين: محمود ومذموم، أما المحمود فهو ما تعلق بثواب الله تعالى، والأمل فيه، فيعمل العمل رجاء ثواب الله: { **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ**

رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) الكهف}. والمذموم وهو ما تعلق بالدنيا واللهو عن التقرب إلى الله: { **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)** الحجر}، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم: (إنما أخشى عليكم اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى، فإن طول الأمل يُنسي الآخرة، واتباع الهوى يصرف عن الحق). (نهج البلاغة/١/٢١٨)، وليس معنى ذلك تحريم التمتع بالحياة وما فيها من زينة، ولكن ألا يكون ذلك هَمُ الإنسان وغايته.

وقد ورد الأمل بلفظ الرجاء ومعناه توقع الشيء وفيه مسرّة، ومنه قوله تعالى: { **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) الكهف**}، والأمل الصحيح هو الأمل الذي ينطوي على الإيمان بالحاضر والإيمان بالمستقبل، أي الرضا بالحاضر والعمل على تغيير المستقبل للأحسن والأفضل، ومن هنا يمكننا القول بأن الأمل يكون مستحسناً إذا كان دافعاً لسلوك إيجابي على كل مستويات الحياة الدينية والأخلاقية والحياتية، وهذا ما ينشده الدين ويدعو إليه، فالأمل يعتبر دافعاً مهماً للسلوك الإيجابي على أي مستوي من مستويات النشاط الإنساني، الأمر الذي يعني أنه يجب على المرء دائماً أن يتحلى بالأمل لتغيير الأوضاع التي يراها سيئة، وأن ينظر إلى المستقبل

نظرة تفاؤلية تدفعه إلى التقدم، لهذا يشترط أن يتمكن الشخص من الإمكانات التي تؤهله لتحقيق مثل هذا الأمل.

والأمل علاقته بالإيمان، كما أن اليأس علاقته بالكفر، والإنسان أحوج ما يكون للأمل في ظل الأزمات والنكبات، فالمريض بحاجة للأمل لمقاومة المرض والانتصار عليه، والطالب بحاجة للأمل ليدفعه للدراسة والاجتهاد والصبر، وصاحب المشكلات بحاجة للأمل لحل مشكلاته، ونحن أهل فلسطين لولا تعلقنا بالأمل في التحرر والاستقلال وقيام دولتنا، ما كنا تمكنا من الصمود في وجه الظلم والعدوان والحصار، ومؤامرات العالم شرقه وغربه، والأمل في نظر الإنسان الفلسطيني والإنسان المتدين الذي يؤمن بوجود قوة عليا تسيطر على الكون وتدبره، ولا يصدر عنها إلا الخير، لهذا أملهم كبير بالنصر على عدوهم، والخروج من الأزمات الواقعة عليه.

والأمل يفتح الأبواب أمام الإنسان ليحيا حياة طيبة متخففاً من الذنوب والآثام: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم}، فمن هنا يمد الدين للإنسان حبال الأمل، فلا يسيطر على قلبه اليأس، فباب التوبة مفتوح لا يغلق، في نفس اللحظة

يبين فيها النبي صلى الله عليه وسلّم أن من طبيعة الإنسان الخطأ، ولكن عليه ألا يتمادى في خطئه، بل يتقدم بالتوبة: (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون). (الترمذي/٢٤٩٩)، فلا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس.

والأمل كما ذكرت سابقاً هو الذي يجعل الإنسان محباً للحياة، يعمل من أجلها لخير نفسه وخير مجتمعه وللارتقاء بالحياة وتقدمها، إنه الأمل الذي هو علامة على الثقة بالله، على عدله ورحمته، وأن العمل لا يضيع عند الله.

وقيمة الأمل قيمة شاملة إنسانية، إلا أن الفرق بين أمل المسلم وأمل الكافر، أن المسلم يأمل بثواب الله في الآخرة، والكافر يعمل للدنيا وخير الدنيا، وكل من المؤمن والكافر يجتهد في أمله، لا يقف أمامه عائق، يحطم كل أسباب الإحباط والقنوط، ويحرص على ألا يتسرب اليأس والقلق إلى نفسه، وليس لحدود الأمل من نقطة يقف عندها، والنبي صلى الله عليه وسلّم يدعونا إلى ذلك الأمل اللامتناهي: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل). (السلسلة الصحيحة/٩)، وهذا معناه أن الإنسان عليه أن يعمل ويترك نتائج الأمور وجني الثمار لله تعالى، وهذا إن دل فإنما يدل على الثقة بالنفس وبقدرتها

على التغلب على كل ما يعترضها من عقبات، لأن الأمل مع الأخذ بالأسباب من عوامل قوة الإنسان، وقدرته على صناعة المستحيل، والتغلب على الصعاب.

إن الإسلام يحارب اليأس، ويعمل على تحرير الإنسان من سيطرة الإحباط، وذلك من خلال فتح الأبواب أمامه، لتكرار المحاولة مرّة ومرّة، فالمجتهد المخطئ له أجر، والمجتهد المصيب له أجران، مطلوب منا وقد خلقنا الله في هذه الحياة وعلى ظهر هذه الأرض، أن نعمل جادين متمسكين بالأمل على أن غداً سيكون أجمل من اليوم، وأن المستقبل سيكون أفضل من الحاضر، ولا يصح ولا يُقبل أن نعيش أسارى مقولة الزمن الجميل، وأن الماضي كان أجمل من الحاضر، لا وألف لا، اليوم أجمل من الأمس، وغداً بإذن الله أجمل من اليوم، بالأمس كان المحتل الإسرائيلي يصول ويجول في أرضنا، يفعل ما يحلو له، أما اليوم فإنه يلوذ بالملاجئ والخنادق ليحمي نفسه من مقاومتنا، ويفر من أمام المقاوم الفلسطيني فرار الجرذان، لا يجوز أن ننظر إلى الأمور بمنظار أسود، نستسلم لليأس والعجز والفشل. علينا أن نغلب جانب الأمل في حياتنا حتى نخفف من نقاط الضعف والجوانب السلبية، لولا الأمل ما نجحت فكرة، ولا أبدع مبدع، ولا

تفوق متفوق، لولا الأمل ما ركب الإنسان الطائرة، ولا انطلق إلى الفضاء، لولا الأمل ما نجح طبيب في اختراع واكتشاف دواء، وعلاج مرض، لولا الأمل ما رفرفت راية الإسلام في بلاد المعمورة، لولا الأمل ما تحرر الإنسان من العبودية وانتصر على سجانه.

وللأمل آثار إيجابية كثيرة على حياة الإنسان، منها أنه يقف في وجه اليأس والقنوط في النفس، فمن أذنب عليه ألا يستسلم لذنبه، بل عليه أن يبادر بالتوبة ويثق برحمة الله. ثم إن الأمل يدعو للتفاؤل ويشحذ الهمم للعمل والاجتهاد، ومن أجل ذلك يقول الله تعالى: { **وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** (١٠٤)النساء}. كذلك فإن الأمل يجلب الطمأنينة لنفس الإنسان، وذلك لثقته بالله أولاً، وثقته بعدم ضياع عمله سدى، وفي أن المستقبل لا بد أحسن وأفضل من الحاضر.

ونحن كشعب فلسطيني الأمل في حياتنا يشكل عاملاً أساسياً في بقائنا وصمودنا في مواجهة الاحتلال والحصار، لولا الأمل ورسوخه في عقولنا وقلوبنا لما بقي منا واحداً يحمل الراية والشعلة، الأمل في الله المغيّر للأحوال والأحداث، الأمل في

تواصل الأجيال في المقاومة والجهاد، الأمل في أننا لا بدّ منتصرون على عدونا، الأمل أن غداً سيكون أفضل من اليوم، الأمل في أن يتولى أمرنا أكثرنا اخلاصاً، وأصدقنا وطنية، وأنفعنا لشعبه وقضيته، الأمل أن تتوحد الكلمة والوجهة، الأمل أن يقبلنا الله.

قيمة المودة

المودة، وهي من القيم الإنسانية الراقية، بمعنى المحبة والوئام، ويُعرّفها علماء النفس بأنها شعور بالانسجام بين شخصين أو أكثر ينبع من الاحتكاك الاجتماعي والعاطفي الدائم، ويعرفها البعض بأنها نوع من الانسجام والتعاطف وميلان القلب وتعلقه.

والمودة قيمة أخلاقية هامة في ترسيخ العلاقات الطيبة في المجتمع الإنساني، فلا يُعقل أن تكون علاقات الأفراد فيما بينهم: الزوج والزوجة، والأبناء والوالدين، والجيران فيما بينهم، والطالب والمعلم، والعامل وصاحب العمل، والجندي وقائده، والموظف والمواطن، والمسؤول والشعب، وهكذا بقية شرائح المجتمع، فلا يمكن أن تقوم علاقة طبيعية بينهم إلا إذا كانت مبنية على أساس من المودة والمحبة والاحترام.

ولقد اهتم الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، وسلوك الصحابة فيما بينهم بهذه القيمة لدرجة أنه تكرر ورودها في أكثر من اثني عشر موضعاً في القرآن الكريم، وفي مجالات

متنوعة، اجتماعية وأسرية، إلا أن الغالب في ورودها فيما يتعلق بالعلاقة بين الزوجين، وبناء الأسرة، لقوله تعالى: { **وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)** الروم}، فمن اللحظة الأولى لوجود الجنس البشري على ظهر الأرض، خلق الله الذكر والأنثى، لأن الله يعلم أن في الأنثى الأنس والسكن والراحة للذكر، وأن ما بين الزوجين من العلاقة ما لا يمكن أن يكون بين غيرهما، فقد جعل الله بينهما أموراً ثلاثة لا تتواجد مجتمعة في أي علاقة غير الزوجين، جعل بينهما أولاً السكن النفسي والجسدي، ثانياً جعل بينهما المودة، ثالثاً جعل بينهما الرحمة.

فأما السكن فيعني الاطمئنان والأمان النفسي والجسدي، وتكرر ذكرها في القرآن لحكمة عظيمة، فما بين الزوجين من الطمأنينة النفسية، والراحة الجسدية، ما لا يمكن أن يكون في أي علاقة على الاطلاق، لا بين الأخوة ولا بين الابن بأبيه وأمه، مع عظيم العلاقة بينهم، لدرجة أن أحدهم لا يعود يُخفي عن الآخر شيئاً يتعلق بأمره، معنوياً أو مادياً، من عواطف ومشاعر وممتلكات ومتاع.

أما المودة والتي تعني المحبة، وهو رباط بين القلوب في أسمى معانيه وأحواله، والجب بين الزوجين من أطهر أشكال الحب وأصدقه، وهذه المودة هي آية من آيات الله، أي معجزة من معجزاته، وقد أحاطتها الشريعة بالقداسة والاحترام. ومع أن الحب كعاطفة راقية ورد ذكره في القرآن ودعا إليه الدين، إلا أننا نجد الكثير من الناس من خلال عاداتهم وتقاليدهم جعلت من الكلام فيه أمراً معاباً ومنكراً، مع أنه أرقى علاقة تربط بين الإنسان وربه من ناحية، وبين الإنسان وغيره من الناس من ناحية أخرى، وأن المحبة بين الزوجين هي قاعدة الانطلاق في بناء أسرة متوازنة راقية، تربي أبناءها على القيم الجميلة، والأخلاق النبيلة، فيكون عضواً صالحاً في بناء المجتمع، وعامل نهضة وتقدم.

أما عن ثالث ما تتميز به الأسرة، والعلاقة بين الزوجين وهي الرحمة، وكما هو معروف فإن الرحمة هي أرقى القيم الأخلاقية الإسلامية والإنسانية، وأكثرها وروداً في القرآن الكريم، وهي من أعظم مقاصد الشريعة الإسلامية، والدين بعمومه، كما أنها غاية مبعث كل الرسل والأنبياء.

من هنا يظهر لنا أن قيمة المودة والتي تحدث الإسلام عنها كثيراً، قيمة تؤدي دوراً كبيراً وبارزاً في بناء المجتمع،

وتأسيس العلاقات الطيبة بين أفراده، وفي مقدمتهم الزوجين، وإذا كانت العلاقة الزوجية تتأسس على هذه القيم، فإن ذلك يعني أن لها مكانة عظيمة، تكاد تصل إلى حد القدسية، لأنها أساس قيام المجتمعات البشرية، والتي تحدث عنها القرآن الكريم بالميثاق الغليظ، والتي شدد في المحافظة عليها وحمايتها، وذلك من خلال ما شرّع من تشريعات وقوانين، وأحاطها بجملة من القيم والأخلاق.

والدين الإسلامي يعتبر الزواج نعمة من نعم الله على الإنسان، لما له من تأثير كبير على الحياة، وخصوصاً فيما يعود على الزوجين من خير كبير، وحينما تحدث الله عن الزواج قال عنه: { **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** (٧٢)النحل}، لهذا يحرص الدين أشد الحرص على حماية الأسرة، والعلاقات الزوجية، وكما ذكرت يحيطها بجملة من التشريعات والقوانين حتى لا تتعرض للانهيار أو التفكك.

إن مفهوم المودة مفهوم عام وشامل، يشمل أفراد المجتمع كله، بل يتعداه إلى الإنسانية بعمومها، فالإنسان أخو الإنسان مهما اختلفت بينهم عاداتهم ولغاتهم وأجناسهم وثقافاتهم

ودياناتهم، ولما وقف النبي لجنازة يهودي قال له أصحابه: إنه يهودي، فقال لهم: أليس نفساً إنسانية، ومن هنا جاء قول الله واضحاً في هذا الخصوص: {يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا}، فهذه العلاقة الإنسانية، وهذه الأخوة لا يمكن أن تكون سوية وطبيعية إلا إذا كان يربط بينها رباط المودة والمحبة والاحترام، ويحرص كل واحد منهم على الآخر.

وقيمة المودة من القيم الدافعة إلى الأمن والسلام، ونشر روح المحبة، وبالتالي ازدهار الحياة وتقدم المجتمع مادياً ومعنوياً، فالمواطن إذا شعر بحب الناس واحترامهم له كان مواطناً صالحاً ومنتجاً ونافعاً، وهذا ما حرص عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبني مجتمع المسلمين في المدينة المنورة، وذلك من خلال ترسيخ جملة من القيم الأخلاقية الإسلامية، وعلى رأسها قيمة المودة، وذلك لأهمية هذا الخلق في جعل العلاقات طيبة وحسنة، وجعل كل فرد ينظر لغيره نظرة الاحترام والمحبة والتعاون: { **قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)** الشورى}.

ولا يمكن أن تستقر العلاقات بين شرائح المجتمع بدون مودة توثق هذه العلاقات، وكل علاقة طيبة تأتي تبعاً لعلاقة

المودة، فهي الأساس لكل العلاقات، فلا يمكن أن تنجح علاقة الحاكم بشعبه إلا إذا كان بينهم مودة ومحبة، وكذلك العلاقة الزوجية لا يمكن أن تستمر وتثمر إلا إذا كان بين الزوجين مودة، وهكذا علاقة الطالب بالمعلم، وعلاقة الطبيب بالمريض، وعلاقة صاحب العمل بالعمال، وعلاقة كل مسؤول بمن تحته من موظفين وأفراد المجتمع. إذن ليس من فراغ تركيز القرآن الكريم على هذه القيمة الأخلاقية والإنسانية.

والمودة تنبع من نفس سوية طيبة، واثقة من نفسها، تحترم غيرها، ليس فيها علل ولا أمراض، قادرة على التفاهم مع غيرها من الناس واستيعابهم وتفهم ظروفهم، وهي نفس مؤمنة بالله الإيمان الحق الصادق، الذي خلق الناس جميعاً مع اختلافهم في كل شيء. إن المودة دليل على أن صاحبها يملك قلباً أبيضاً لا يوجد فيه حقد أو حسد أو بغضاء للآخرين.

ونحن كشعب فلسطيني في أمس الحاجة لخُلق المودة، نهذب من خلالها علاقاتنا في عمومها، علاقة الأزواج التي أصبحت فارغة من كل سمات المودة والمحبة، فقط هي علاقة وظيفية أمام الناس والمجتمع، بحاجة للمودة في علاقة الآباء بالأبناء، بحاجة للمودة في علاقة الحاكم بالمحكومين، علاقة

المعلم بالطلاب، علاقة الشيخ والقسيس بالمؤمنين، بحاجة للمودة لبناء علاقة طيبة بين تنظيماتنا، بحاجة للمودة لإعادة صياغة منظومة العلاقات الاجتماعية في مجملها، حتى نقوى على مواجهة عدونا الإسرائيلي الذي يحتل أرضنا ويحاصرنا، وحتى نستمر في صمودنا على أرضنا.

قيمة الصبر

الصبر، وهو قيمة أخلاقية عظيمة، تعني حبس النفس عن الجزع، وعرّفه الأصفهاني: بأنه حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، وقيل هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله، ونقيضه الجزع. والصبر ليس استسلاماً للذل والمهانة، وليس سلبية في مواجهة الباطل، بل ضبط النفس والتحمل في سبيل أداء ما يجب على المرء أداءه ابتغاء وجه الله. ويتطلب الصبر قدرة عالية على الاحتمال، وضبط النفس، وإيماناً بالغاية والهدف، كما يتطلب ممارسة على السيطرة على هوى النفس وانفعالاتها، وعلى الرجوع إلى العقل والروي في مواجهة الشدائد والأزمات، لهذا قال تعالى: { **وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)** لقمان}.

ولأهمية قيمة الصبر تكرر ورودها في القرآن الكريم عشرات المرات، وتكلمت عنه السنة المطهرة كثيراً وسلكه الأنبياء والمرسلون والصالحون طريقاً لهم، وقد أخبرنا القرآن أن الأنبياء

والمرسلين تخلقوا به في مواجهة كفر وتكذيب أقوامهم، وكانوا مثلاً يحتذى بهم فيه: {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل}، فالصبر يعود في مجمله إلى إيجاد قدرة نفسية على الامتناع عن شيء غير مرغوب من الأخلاق النفسية الذميمة كالجزع والجبن والضجر وافشاء السر، وفي المقابل إيجاد قدرة نفسية على تحمل أداء أمر مرغوب فيه على الرغم مما فيه من مشقة.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "إذا استحكمت الازمات وتعقدت حبالها، وترادفت الضوائق وطال ليلها، فالصبر وحده هو الذي يشيع للمسلم النور العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط. والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه، ولا بد أن يبني عليها أعماله وآماله، وإلا كان هازلاً، يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر، وانتظار النتائج مهما بعدت، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت بقلب لم تعلق به ريبة، وعقل لا تطيش به كربة، يجب أن يظل موفور الثقة بادي الثبات".

وكما هو معروف فإن الصبر من شيم وأخلاق الرجال القادرين على تحمل أثقال الحياة، والمصابرة والتحمل والتريث، وهي أشياء تتناغم مع سنن الله في الكون والحياة، فأمور الدنيا لا تقوم إلا بالصبر، فما جنى مزارع محصول زرعه إلا بعد صبر

طويل، وما رُزقت أم بمولودها إلا بعد صبر على الحمل والآلام لمدة أشهر طويلة، وما نجح طالب في دراسته إلا بعد صبره على الجدّ والمثابرة والمذاكرة، كذلك ما انتصر جيش على عدوه إلا بصبره على التدريبات وتحمل المشقات والأهوال والخوف، فكلما كثرت المصائب كان ذلك إعلان عن خير قادم، وكرامة ترتجى، وتطهير للنفوس من الآثام والذنوب.

وقد جاء الصبر في القرآن الكريم متعدد الأنواع: فمنه صبر على الطاعة وتحمل المشقة في أدائها، والاستمرار والمداومة عليها، وتحمل ما يلاقيه من جرّاء تمسكه بها، لقوله تعالى: { **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)** طه}. ومنه الصبر على عشرة الناس والحرص على مودتهم وتحمل هفواتهم: { **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** (الكهف:٢٨}، هؤلاء الصابرون كان جزاؤهم الجنة: {أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً}.

وجاء الحديث عن الصبر في القرآن الكريم على ترك المعاصي، ومواجهة المغريات التي تقف في وجه الإنسان من شهوات وملذات، وتجنب هذه الأشياء وتحمل المكاره، ولا يكون

ذلك إلا بالصبر والتحمل لقوله تعالى: { **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)** البقرة}، فالأعمال الصالحة تحتاج إلى صبر، والطاعات المداومة عليها تحتاج إلى صبر، وتحمل ما قد يلاقيه من وراء تمسكه بها، والصبر بالنسبة للإنسان سور واق من الوقوع في الآثام والموبقات، فالجهاد بالمال أو النفس، أو كليهما معاً يحتاج إلى صبر، والعبادات بأنواعها تحتاج إلى صبر، والإصلاح بين الناس يحتاج إلى صبر، والبعد عن الفاحشة يحتاج إلى صبر، وتحمل إغراء المال والسلطان يحتاج إلى صبر، كل شيء يحتاج إلى صبر.

ومن أنواع الصبر كما ورد في القرآن الكريم الصبر على البلاء، فالمسلم قوي الإيمان يثبت ويتماسك أمام البلاء، فلا يجزع ولا يفزع ولا يصاب بالهلع: { **لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)**البقرة}، فالإنسان معرّض أن يُصاب بنفسه أو ماله أو منزله أو أهله، وحياة الإنسان معرضة لمثل ذلك وأكثر، ونادراً ما

تخلوا الحياة من الشدائد والمصاعب والآلام، لهذا مطلوب منه أن يصبر أمامها وألا يجزع.

ومن أنواع الصبر، الصبر على متاعب الدعوة إلى الله، فكل من يعمل في هذا المجال عليه أن يتحلى ويتزود بالصبر، وألا يؤثر فيه ما يواجهه من الناس من تكذيب ومعارضة وفتن وحروب، وكل الأنبياء والمرسلين أمثلة حية لنا في ذلك: { **وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** (١٠) المزمل}، فغالباً ما واجه الدعاة إلى الله معارضات كثيرة، واستهزاء وتشويه، ولا ينفع في هذه الحالة إلا الصبر والمحاولة المستمرة في الدعوة إلى الخير.

فالإسلام يربي أتباعه على القيم الأخلاقية الحسنة، ومن ضمنها خلق الصبر، حتى يكونوا أقوياء، قوة روحية ومعنوية، قادرين على مواجهة مصاعب الحياة وشدائدها دون أن يعتريهم ضعف أو خضوع، وفي نفس اللحظة دون تقصير في طاعة، أو أن تهزم أمام معصية، وهذه كانت أخلاق المسلمين على مدار تاريخهم الطويل، مما جعلهم ومكنهم من بناء حضارة إنسانية شهدت بعظمتها كل الأمم.

إن قيمة الصبر ذات أثر ومردود إيجابي واضح على الفرد كفرد، وعلى المجتمع بأكمله، فهو طريق البناء والانتصارات والثبات، وهو سبيل بناء الإنسان القوي الذي لا يتبرم ولا يضجر، إذا أصابته بلوى من البلايا لا ينهار ويصاب بخيبة أمل، وتضيق عليه الدنيا بما رحبت، بل الإنسان المؤمن يقف بقوة من خلال الصبر والثبات، في مواجهة الأحداث، والشعب الفلسطيني خير مثال على القدرة على الصبر في مواجهة الظلم والاحتلال والحصار، وأمام تخلي القريب قبل البعيد عنه، ومن خلال صبره صنع ويصنع العجائب والمستحيلات، ليتمكن من مواجهة عدوه وما يطرأ من أحداث، ولولا الصبر لتلاشى وذاب هذا الشعب في شعوب العالم، ولنسي العالم قضيته وحقوقه، لكنه بصبره وثباته وتحمله انتقل من حال الضعف إلى حال القوة في الحروب الثلاثة الأخيرة على سبيل المثال، وبالتالي ظهر أكثر صموداً وتحدياً لعدوه من ذي قبل.

ونحن كشعب فلسطيني الصبر بالنسبة لنا يمثل شعاع الأمل الذي يلوح لنا من بعيد، سننتصر على عدونا بأمور عدة على رأسها وفي مقدمتها الصبر، الصبر الذي سيصنع منا ما نريد، الطالب الناجح، والسياسي البارع، والإعلامي البارز،

والجندي المنتصر، والطبيب المخلص والمبدع، والمهندس والمزارع والتاجر والمعلم، الصبر سيكون طريقنا لتحرير الأرض والإنسان، وكما صبر من قبلنا على ظلم الصليبيين ثم هزموهم وطردوهم، وكما صبروا على همجية التتار وحولوهم إلى الإسلام، سننتصر على حثالة البشر، ونستعيد أرضنا بكرامتها وقداستها، {**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا** (٦) **وَنَرَاهُ قَرِيبًا** (٧) المعارج}.

قيمة الخـير

وهي قيمة راقية يسعى إليـها كل المصلحون من أنبياء ورسل ومفكرون وغيرهم، وهي بمعنى الحسن لذاته، ونقيضـها الشرّ، وقد تعددت معاني الخير عند العلماء والفلاسفة والمفكرين، فمنهم من يرى الشعور باللذة هو خير بالنسبة لصاحبه بغض النظر عن مصدرها، ومنهم من يرى الخير في فعل الواجب المتناسق مع الطبيعة ومع العقل، ومنهم من يرى أن الخير هو خلاص النفس من سجنها المادي، والمسيحية ترى الخير في طاعة القانون الذي هو عندهم الوحي المنزل من السماء، سواء كان معقولاً أو غير معقول، منطقياً أو غير منطقي، والإسلام يرى الخير في كل شيء طيب ونافع للإنسان، فرداً أو جماعة، فالخير عند المسلمين كلمة جامعة لكل قول أو فعل أو رأي مردوده نافع غير ضار، ومنه قوله تعالى: { **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٧٧) الحج}، وقوله تعالى: { **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ..البقرة:١٤٨}، فهو أمر عام يشمل كل شيء طيب.

وقد وردت لفظة الخير في القرآن الكريم في أكثر من (١٩٠)، آية من آياته، وهذا دلالة على أهميته. ورسالة الإسلام هي في الأساس رسالة خير للإنسانية، في عقيدتها وعباداتها وتشريعاتها وأخلاقها، وقد تعددت الدعوة في القرآن الكريم والسنة النبوية لفعل الخير، مهما صغر ذلك في نظر الفاعل والمفعول له: {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره}، وقوله تعالى: { **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)** البقرة}. وقد اهتم مفكرو الإسلام بموضوع الخير وما يقابله الشرّ، حتى أصبح عِلماً مستقلاً ضمن علم الأخلاق، وقد قسّمه العلماء إلى خير مطلق، وخير نسبي، فما كان مرغوباً للناس جميعاً سُمي مطلقاً، وما كان خيراً لأفراد دون غيرهم سمي نسبياً، ومن تقسيمات العلماء للخير: أن منه ما كان شريفاً، ومنه ما كان محموداً، ومنه ما كان نافعاً، فالخير الشريف مثل الحكمة والعقل، والخير المحمود مثل فضائل الأخلاق، والخير النافع كل أمر يُطلب ليس لذاته، بل من أجل التوصل به إلى الخير.

وقد تعددت وجهات النظر عند مفكري الإسلام في تعيين المقاييس التي نحكم من خلالها على الشيء بالخيرية أو الشرّية، فالمعتزلة وكل من يُقدّم العقل على الشرع قالوا: إن العقل هو

مقياس الخيرية والشرّية، فالعقل هو الذي يُدرك الأشياء بصفاتها، وبالتالي ما حسّنه العقل فهو حسن وما قبّحه العقل فهو قبيح، لهذا يترتب على فعله الثواب والعقاب، وحجتهم أن الحُسن أو القبح معلومين قبل نزول الشرع، وأن المؤمن والملحد يستويان في معرفة الْحُسن والقبح، لأنهما من مدركات الفطرة عند كل الناس. أما جمهور العلماء فقالوا بخلاف قول المعتزلة، وأن المقياس هو الشرع، فما حسّنه الشرع فهو حسن، وما قبّحه الشرع هو قبيح، وقالوا إن الأفعال ليس لها صفات ذاتية للخير أو الشرّ، إنما ميل الإنسان هو الذي يجعل الفعل خير أو شرّ.

وقيمة الخير وعلاقاتها بالإنسان من القضايا التي ثار حولها نقاش كثير بين العلماء، وهل طبيعة الإنسان خيّرة، أم شرّيرة، أم مزدوجة بين الخير والشر، فمن العلماء (المعتزلة وابن تيمية وابن القيم)، من قال: أن الطبيعة الإنسانية خيّرة في أصل الخِلقة، وأن الشرً خارج عن مقتضى طبيعته، فهو في الأساس خيّر لكنه قد يفعل الشرّ عن خطأ أو جهل. وهناك اتجاه قال إن الإنسان شرّير بطبعه، ومنهم علماء اللاهوت النصارى، الذين قالوا بالخطيئة الأولى، لكنه مع ذلك قد يفعل الخير، فالأساس عندهم الشرّ، والخير فعل عارض. أما الاتجاه الثالث فيقول إن

هناك من البشر خيرون بالفطرة وهم قليلون، وشرّيرون بالفطرة وهم الأكثرية، وبينهم المتوسطون بين الخير والشرّ، وهذا الاتجاه ينكر قيمة النبوة والرسالة وعلم الأخلاق، بناءً على أنه لا يمكن أن ينتقل الشرّيرون من الفطرة الشرّية إلى الخيرية، والقائلون بهذا القول هم أصحاب الفكر المادي. أما أصحاب الاتجاه الرابع وهو قول الإمام الغزالي وابن خلدون، فيقول إن الطبيعة الإنسانية محايدة، فهي ليست خيّرة ولا شرّيرة بالمطلق، بل فيها الاستعداد لأن تكون خيّرة أو تكون شرّيرة، حسب البيئة التي تنشأ فيها، فهم ينكرون فكرة خيّر بالفطرة، أو شرّير بالفطرة: { **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا** (٧) **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** (٨) **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** (٩) **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** (١٠) الشمس}، وبالتالي يولي أصحاب هذا الاتجاه أهمية كبيرة للنبوة والرسالة والتعليم والاعتياد.

والخير مفهوم عام يندرج تحته كل سلوك حسن، وعمل طيب نافع، وقول جميل، لهذا جاء النص القرآني واضحاً في هذا المجال: { **وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (١١٠) البقرة}، فقد اعتبر القرآن الكريم رسالة محمد صلى الله عليه وسلّم رسالة خير للبشرية: { **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ**

رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)البقرة}، فالخير هنا الوحي والرسالة، كذلك اعتبر القرآن الكريم أن عبادة الله والتقرب إليه خير من عبادة الأوثان: { **وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (١٦) الغنكبوت}، كذلك اعتبرت الشريعة إعطاء كل ذي حق حقه من الخير: { **فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)** الروم}، كذلك اعتبرت العقيدة تقديم الآخرة على الدنيا خير للإنسان: { **وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)** الضحى}، وهكذا ورد الخير بعدة معانٍ كثيرة كلها يدل على العمل النافع والنتيجة الحسنة.

والخير نقيضه الشرّ، وهو صفة أخلاقية للفعل الذي يقع على خلاف الطبع، وقيل هو عدم ملاءمة الشيء لطبعه، وعرّفه العلماء المسلمون بأنه الفعل العري عن الحكمة، أو هو وضع الشيء في غير موضعه اللائق به، والخير يُنسب إلى الله دائماً، لكن الشر لا يُنسب إلى الله تعالى لا في أفعاله ولا في أقواله، لأن أفعال الله كلها لحكمة مقصودة، وليست عارية عن الحكمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (الخير بيديك، والشر ليس إليك).

(مسلم/٧٧١)، والشرّ كله ظلم لأنه كما عرفنا وضع الشيء في غير موضعه، والله لم يخلق شرّاً محضاً لا خير فيه من جميع الوجوه، والشرّ لا يضاف للخالق إنما يضاف للمحل الواقع عليه وهو الإنسان، فهو بالنسبة للإنسان شرّ لأنه يُحدث ألماً، لكنه بالنسبة لله هو خير لأن له حكمة يعلمها الله تعالى، أحياناً تغيب هذه الحكمة عن فهم الإنسان لأسرارها، وقد يكتشف الخير فيها فيما بعد، وقصة موسى عليه السلام والرجل الصالح (الخضر)، من هذا النوع، غابت الحكمة في الأفعال الثلاثة عن فهم موسى، لكن الله أعلم بها الخضر، فلما علم موسى فيما بعد بحكمة كل فعل أقر وأيقن.

والإنسان كل الإنسان بغض النظر عن دينه ولغته وجنسه، ومكان وجوده مطلوب منه دائماً أن يحرص على فعل الخير ويتحرى ذلك، لأن الحياة لا ينفع معها إلا الخير، فهو الذي يدفع الإنسان ليعمل وينتج ويُخلص، ودافع الخير موجود عند كل الناس على اختلاف باعثه عند المسلم وعند غيره، لكن النفس الإنسانية لا تعدم وجوده، الخير هو الدافع للطبيب لعلاج المرضى وتحمل صراخهم وآلامهم، وهو الدافع للمعلم للصبر على طلابه وتحمل المشقات من أجلهم، وهو الدافع للأب والأم للقيام على شئون

البيت والأسرة، الخير هو الدافع المكنون وراء أي عمل طيب يقوم به الإنسان، وهذه في الفطرة المغروسة في النفس الإنسانية.

ونحن كشعب فلسطيني تعودنا على فعل الخير، ومن أعظم أفعال الخير الرباط في أرض الله المباركة، والدفاع عن بيت الله الحرام مسرى رسوله الكريم، كذلك من أعظم أعمال الخير التي نتقرب بها إلى الله مواجهة اليهود والوقوف في وجه ظلمهم وكفرهم وطغيانهم، ومن أوجه الخير أننا قائمون على عبادته، وحفظ دينه، والوقوف عند حدوده، وأمام كل هذا أملنا في الله كبير أن يوحد صفنا، وينصرنا على عدونا.

قيمة الرفق

نلتقي مجدداً مع قيمة جديدة، إنها قيمة الرفق، وهي من القيم الأخلاقية الدينية والإنسانية، ويأتي بمعنى النفع والاعانة، وعرّفها العلماء بأنها صفة يحبها الله في كل مجالات الحياة، وهو سلوك إنساني راقٍ يُضفي على أي عمل حُسن وجمال، وتأثير نفسي كبير، ومن يتصف به بين الناس يكون ذا مكانة عظيمة عندهم، يحبه الناس ويقبلون عليه ويثنون على أخلاقه، فيكون ايجابياً نافعاً لقومه وجماعته، وضد الرفق العنف.

ولأهمية قيمة الرفق اهتم بها الإسلام اهتماماً كبيراً، لدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلّم يقول: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه). (مسلم/٢٥٩٤)، فهو من أسباب رفعة الإنسان وزيادة مكانته، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلّم: (من أُعطي حظه من الرفق فقد أُعطي حظه من الخير، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من الخير). (أحمد/٢٥١٣٥)، والدين يدعو الناس جميعاً، المؤمن

وغير المؤمن إلى سلوك طريق الرفق في كل شيء، وحديث النبي صلى الله عليه وسلّم واضح في ذلك: (إن الله يحب الرفق في الأمر كله). (البخاري/٦٢٥٦)، دون تحديد جهة المرفق به. والإسلام ينظر للعنف والغلظة على أنها شرّ: (من حُرم الرفق حُرم الخير)، وقد جعل الدين أجر وثواب الرفق عظيم عند الله: (ثلاث من كن فيه يسر الله حتفه، وأدخله جنته: رفق بالضعيف، وشفقة على الوالدين، وإحسان إلى المملوك). (الترمذي/٢٤٩٤).

ومع أن لفظة الرفق لم ترد في القرآن الكريم صراحة، إلا أنها جاءت ضمن لفظتي الإحسان والرحمة، فهو واجب على كل مسلم في جميع مجالات الحياة، مع نفسه، ومع غيره، مع الإنسان والحيوان، مع الصغير والكبير، والضعيف واليتيم والمسكين، فرفق الإنسان بنفسه فلا يحملها ما لا تطيق، لهذا رخّصت الشريعة الصلاة قاعداً لمن لا يستطيع القيام، والإفطار لمن لا يقدر على الصيام، وأسقط فرضية الحج عمن لا يستطيع، وجعل أعظم أنواع الرفق، الرفق باليتيم والمسكين والأسير، وحينما أمر الإنسان بالرفق بالنفس فإنما مقصده من ذلك تطهيرها وحملها على الطيب من القول والعمل.

ثم إن من أعظم أنواع الرفق، رفق الإنسان بأهل بيته، زوجته وأولاده، ومقصود الرفق ليس الإهمال وتركهم على هواهم، بل حملهم على ما ينبغي أن يكونوا عليه من خلق ودين، ومداومة النصيحة لهم، وجعل من نفسه قدوة حسنة لهم في قوله وفعله، والرفق بالزوجة يدخل ضمن المودة والرحمة التي أمرنا الله بها، والدين يُحذرنا من التجاوز في الرفق والمغالاة فيها، لأن ذلك قد يؤدي إلى الانحراف عن الطريق القويم، وهكذا الرفق بالأرحام وعدم الغفلة عنهم خوف الشدة والقسوة، فيؤدي إلى الخروج عن الدين وتجاوز الشريعة، فإن للرفق قواعد يجب مراعاتها حتى لا ينقلب إلى تهاون وتساهل.

وقيمة الرفق عامة شاملة، تشمل كل مناحي الحياة، الإنسان والحيوان، الكبير والصغير، المؤمن والكافر، الأبيض والأسود، وهي عمل صالح طيب يضاف إلى حسناته، فيكون سبباً في دخوله الجنة في الآخرة، ويكون سبباً للاحترام والتقدير وحب الناس في الدنيا، وأعظم الرفق هو رفق الله بعباده، في أنه جعلهم مسلمين، أتباع محمد صلى الله عليه وسلّم، وأن جعل شريعة الإسلام رحمة للعباد، لقوله تعالى: { **ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ** ..البقرة:١٧٨}، فالرفق مطلوب من المسلم مع الآخرين، بدءاً من

الرفق بنفسه، ومروراً بالرفق بالآخرين مسلمين وغير مسلمين، الرفق بالإنسان والحيوان والطير، وكل مخلوق يدب على ظهر الأرض.

ومما اتصف به الأنبياء جميعاً صفة الرفق، والتي هي أصل من أصول الأخلاق في الدين كله، والإسلام على وجه الخصوص لا يعتبر الإنسانَ إنساناً إلا إذا تحلى بفضائل الأخلاق، ومنها فضيلة الرفق، وكمال الإنسان لا يكون مع نفسه فقط، بل يكون من خلال احتكاكه بالآخرين والتعامل معهم، فلا قيمة لأخلاق الإنسان إذا لم تنعكس سلوكاً طيباً بينه وبين غيره من الناس والحياة، ومن الرفق بالناس حين دعوتهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد مدح الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلّم في ذلك حين قال: { **وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ..آل عمران:١٥٩** }، فرفق النبي بأصحابه جعلهم يلتفون حوله، ويؤمنون به وبما جاء من دعوة الحق.

وفضيلة الرفق تسمو بالإنسان إلى أعلى الدرجات، ورذيلة العنف والقسوة تنحط به إلى أسفل الدركات، وعلاقة الرفق بالإيمان والتقوى علاقة قوية، فمن حُرم الرفق حُرم الخير كله، وبالتالي حُرم الجنة، وكما قلت سابقاً فإن الرفق كما يكون في

القول والكلمة الطيبة يجب أن يكون في العمل والمعاملة الحسنة، والرفق باللسان إن لم يصحبه رفق في العمل يكون أقرب إلى النفاق.

والرفق في الإسلام رفق عام بكل الخلائق، لا فرق بين إنسان أو حيوان، صحيح هو بالإنسان أولى وأوفق، لكنه لا يقصر في رفق الحيوان، ولقد تميزت الشريعة الإسلامية عن غيرها في تأصيلها لجملة من التشريعات والأخلاقيات الرحيمة في التعامل مع الحيوان بكل أنواعه، تحريمه لكل ما يلحق الأذى بهذه الحيوانات، فقد حرّم متابعة السفر عليها دون أن يعطيها فرصة للراحة، كما حرّم كل ما يُعرضها للخطر والأذى، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم قوله: (نهى رسول الله أن يتخذ ذو الروح غرضاً). (البخاري/٥٥١٥)، كذلك حرّم الإسلام أن نحملها ما لا تطيق من الأحمال، وأن نتعامل مع الحيوانات على ما خُلقت من أجله، فمنع جعل البقرة والجاموسة والغزالة لحمل الأثقال، لأنها لم تُخلق لذلك، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلّم قوله: (عُذبت امرأة في هرة حبستها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض). (البخاري/٣٤٨٢).

إن الرفق بالحيوان يعتبره الإسلام حقاً من حقوق هذه الحيوانات على الإنسان، وليس ترفاً وتكرماً، وذلك لأن الدين ينظر إلى حياة الحيوان على أنها صورة من حياة الإنسان: { **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)** الأنعام}، وقد اشتهرت في حياة المسلمين الأوقاف والحبوس على إطعام الحيوانات والطيور، وبنوا الأسبلة لسُقيا الحيوان، كذلك بناء دور لعلاجها ورعايتها، وكانوا يقومون على إطعامها وعلفها، روي أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب وخرج، فإذا كلب يلهث ويأكل الثرى من العطش، فقال لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكره الله وغفر له، قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً، قال: في كل ذات كبد رطبة أجر). (البخاري/٢٣٦٣).

إن الرفق عامل من عوامل تقوية أواصر العلاقة بين أفراد المجتمع، رفق الزوج بالزوجة، ورفق الأب بالأولاد، ورفق الحاكم بالرعية، ورفق الدائن بالمدين، ورفق المعلم بالطالب، ورفق

الطبيب بالمريض، وهكذا رفق الناس بعضهم ببعض، كل هذا يؤدي إلى قيام مجتمع متعاون ومتحاب، تنتشر بينهم روح الاحترام والتآلف، ويحرص كل واحد منهم على الآخر، فيعيشوا في أمن وسلام.

ونحن في فلسطين نحتاج إلى روح الرفق ترفرف في ربوع حياتنا، فتضفي عليها جمالاً وتنشر بيننا المحبة والاحترام، كلنا بحاجة إلى أن يرفق بعضنا ببعض، الحاكم والزوج والأب والمعلم والتاجر والطبيب، والمسؤول والمزارع، حتى نتمكن من بناء مجتمع قوي قادر على مواجهة المحتل الغاصب، وتفكيك الحصار الخانق.

كشف بمؤلفات الأستاذ حسني العطار

داعياً الله أن ينفع بها وأن تكون في ميزان حسناته ومن له حق وفضل عليه:

أولاً. الدراسات القرآنية:

١. من آيات الإعجاز في القرآن الكريم (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٢. الاستهزاء والسخرية في ضوء القرآن الكريم. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٣. الحوار في القرآن الكريم: دراسة ونموذجاً. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٤. قيم تربوية مستنبطة من قصص سورة الكهف. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٥. الرازي ومنهجه في التفسير وموقفه من اليهود. (دراسة).

ثانياً. علوم الحديث ومصطلحه:

٦. قضايا حديثية. (دراسة).

٧. دراسات حديثية تحليلية معاصرة. (دراسة).

٨. قطوف ومختصرات من علم أصول الحديث.

٩. إرشاد الأبرار إلى تخريج أحاديث المختار. (مساق أكاديمي). على المكتبة الشاملة.

١٠. مفتاح كتاب تحفة الأشراف للإمام المزّي

ثالثاً. دراسات في العقيدة والفكر:

١١. يوم القيامة بين التأصيل الديني والعقلي. (دراسة). على المكتبة الشاملة.

١٢. المختصر المفيد لأشراط الساعة وأحداث يوم الوعيد. على المكتبة الشاملة

١٣. ثورات الربيع العربي وحكم الخروج على الحكام (دراسة) على المكتبة الشاملة.

١٤. نظرية الخلافة عند الخوارج. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

١٥. أثر العقيدة الإيمانية على الصحة النفسية. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

١٦. عقيدة المهدي المنتظر عند الشيعة: عرض ونقد. (دراسة)

١٧. السنن الإلهية: وحركة النهضة الإنسانية – دراسة وعرض. (دراسة). على المكتبة الشاملة.

١٨. نظرية الفضيلة عند اليونان والمفكرين الإسلاميين. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

١٩. البابية والبهائية: ضلال وإضلال. (دراسة). على المكتبة الشاملة.

٢٠. شرع من قبلنا (دراسة). على المكتبة الشاملة.

٢١. الوالدان: بين البر والعقوق. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٢٢. نظرات سريعة في كتاب " قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة " (اختصار) على المكتبة الشاملة.

٢٣. مختصر لكتاب "التوسل أنواعه وأحكامه" للشيخ ناصر الدين الألباني.

٢٤. مختصر لكتاب "الروح" لابن قيم الجوزية.

٢٥. تلخيص كتاب شفاء العليل في القضاء والقدر لابن قيم.

٢٦. مختصر لكتاب "منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد " لعثمان علي حسن.

٢٧. العقائد اليهودية فساد وإفساد دراسة ونقض. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٢٨. العقائد النصرانية ضلال وإضلال دراسة ونقض. (دراسة).

٢٩. دراسة وتحليل لسفر أخبار الأيام الثاني. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٣٠. نظرية الإمامة عند الشيعة. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٣١. الفرق بين الجهاد والإرهاب. (دراسة).

٣٢. أهم أسباب تخلف العرب والمسلمين. (دراسة).

٣٣. الدكتور مصطفى محمود: آراؤه الاعتقادية وموقفه من المذاهب الفكرية والملل المعاصرة (رسالة ماجستير).

٣٤. مصطفى محمود حياته وآراؤه الاعتقادية. (دراسة).

٣٥. مصطفى محمود حياته وموقفه من المذاهب الفكرية المعاصرة. (دراسة).

٣٦. رمضانيات مقالات وذكريات. (مجموعة مقالات).

٣٧. عطاريات: مقالات في الدين والحياة. (مجموعة مقالات).

٣٨. قيمنا الأخلاقية بين الأهمية والحاجة. (دراسة).

٣٩. الأخلاق بين الادعاء والالتزام. (دراسة).

٤٠. قضايا دينية وفكرية. مقالات.

٤١. فيس بوك صائم.

٤٢. في عيونهم.

٤٣. أنا والسلطة والوطن. مقالات.

رابعاً. دراسات فلسطينية:

٤٤. مدينة القدس، والمسجد الأقصى: ماضٍ مجيد ومستقبل موعود. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٤٥. فلسطين: نقض مزاعم الكتاب المقدس. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٤٦. فضائل فلسطين وبيت المقدس في الكتاب والسنة. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٤٧. القضية الفلسطينية: رؤية إسلامية. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٤٧. القدس بين التهديد والتهويد. (محاضرات ومقالات) على المكتبة الشاملة

٤٩. مدينة القدس أخطار لا تتوقف. محاضرة

٥٠ . مستقبل الصراع الإسلامي الصهيوني من خلال كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون". (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٥١. الماسونية: أخطر الجمعيات السرية. (دراسة)

٥٢. فلسطينيات مقالات في الوطن والقضية. مجموعة مقالات.

٥٣. مصر وقطاع غزة الأرض والسكان. مقالات

٥٤. انعكاسات حرب ٢٠٠٨م على المجتمع الفلسطيني والمجتمع الإسرائيلي. (دراسة تحليلية مقارنة).

٥٥. مصر التي في خاطري. (مقالات ومنشورات)

٥٦. أوراق عربية. (مقالات).

٥٧. تلخيص كتاب د. موسى أبو مرزوق مشوار حياة.

٥٨. الجزيرة العربية قبل الإسلام: الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية. (دراسة)

٥٩. أوسلو وخيبة الأمل الفلسطينية. مقالات.

خامساً. دراسات أدبية:

٦٠. عبد الرحمن بارود: شاعر المقاومة ـ (دراسة نقدية) على المكتبة الشاملة.

٦١. عاشق فلسطين: عبد الكريم الكرمي (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٦٢. الشيخ رجب العطار ذاكرة أمة. (مذكرات).

٦٣. الشيخ رجب العطار مجاهداً. (دراسة).

٦٤. طوبى للغرباء: قصة حياة الحاج موسى برهوم. مقالات.

٦٥. صعوبة المطالب في بلاد الله غالب. حكاية

٦٦. شخصيات عرفتهم. مقالات.

٦٧. العطار في بلاد المختار. حكاية.

٦٨. حكاية مواطن غزاوي. حكاية.

٦٩. بين الذكريات. مقالات.

٧٠. أمي سلام عليك في الخالدين.

٧١. قصص وحكايات.

٧٢. شاميات. حكاية من حلقات

٧٣. أبي رحمك الله

سادساً. دراسات فقهية:

٧٤. الدية في الشريعة الإسلامية (دراسة فقهية). على المكتبة الشاملة.

٧٥. الوديعة المصرفية: دراسة فقهية – اقتصادية. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٧٦. الانتخابات وأحكامها في الإسلام. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٧٧. حقوق المرأة المالية في الإسلام. (دراسة فقهية) على المكتبة الشاملة.

٧٨. دية المرأة المسلمة في الشريعة الإسلامية. (دراسة فقهية) على المكتبة الشاملة.

٧٩. الخنزير: أخطاره وأحكامه (دراسة مقارنة). على المكتبة الشاملة.

٨٠. السماحة الإسلامية في الضرورة الشرعية. (دراسة) على المكتبة الشاملة.

٨١. قضايا اجتماعية. مقالات

٨٢. الصوم وتهذيب النفس. دراسة.

٨٣. تلخيص كتاب الاختلافات العلمية.

٨٤. كورونا بين المحنة والمنحة

كتب تحت الإنجاز:

١. الشوق والحنين. سيرة ذاتية

٢. لو سمحت لحظة من فضلك

المحتويات